وزارة الثقافة
إقليم القاهرة الكبرى وشمال الصعيد الثقافي
فرع ثقافة الجيزة

أمطار يوليو

عبد الحميد بشارة

رواية

الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم القاهرة الكبرى
وشمال الصعيد الثقافى

أمطار بوليو

عبدالحميد بشارة

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم القاهرة الكبرى
و شمال الصعيد الثقافى

رئيس مجلس الإدارة
محمد عبد الحافظ ناصف

رئيس الإقليم
أ.د. عبد الناصر الجميل

مدير عام الفرع
د. محمد زيدان

مدير التحرير
د. محمد حلمى حامد

مدير إدارة النشر
دعاء محمد صفوت

المتابعة الإدارية
فاطمة الكرارجي

الإشراف الطباعى
محمد جمال

• أمطار يوليو
• عبدالحميد بشارة
• الطبعة الأولى :
الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم القاهرة الكبرى الثقافى
٢٠١٥ م
• تصميم الغلاف: د.خالد سرور
• المراجعة اللغوية :
الشاعر/ محمد فايد عثمان
• رقم الإيداع: ١٠٩٨٣ /٢٠١٥
• المراسلات:
إقليم القاهرة الكبرى الثقافى
شارع اليابان أمام قاعة سيد درويش
الهرم – جيزة
ت.ف: ٣٥٦٢٤١١٠
E-mail: cairo.culture@yahoo.com

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول .

احلم وامنح لنفسك الإذن بأن ترى نفسك كما تختار لها أن تكون.

جوي بيج.

يمكن لكافة أحلامنا أن تتحقق إذا تحلينا بالشجاعة للسعي وراء ذلك.

والت ديزني.

١

بلغ عثمان من العمر عشرين عاما ، لم يكن الوالد ليدعه دون زواج بعد بلوغه أكثر من ذلك ، حيث زواج الفتيان في الأوساط الريفية يبدأ مع البلوغ غالبا ، ويأتي (موسم التزاوج) بصورة فردية عند استواء الفتي إذا نبتت لحيته وخط شاربه وغلظ صوته ، واستطاع ـ بفلاحة الأرض ـ أن يفتح بيتا يعول فيه أسرته الناشئة.

أما الفتيات فهن أسرع إلى الزواج من سهم إلي هدف ، فلا مكان لإحداهن في بيت والدها إذا حاضت وكانت قادرة علي إنجاب مثلها ، بغض النظر عن استطاعتها النفسية والجسمية والعقلية . هكذا نشأ الفتيان والفتيات في قرية (جرجاوة) العتيقة التي يمتد نسبها إلى عهود سحيقة تبلغ الفراعنة الأجداد .

قانونها العام تشكل منذ مئات السنين ، العصبية الحاكمة ، والتباهي بالعدد والطين ، وكثرة الذكور وقلة الإناث ، والثأر والدم .

أرض قاحلة لا تنبت سوي الشوك والحزن مهما أزهرت عيدان خضراء وفاكهة ملونة.

ولم يكن منهم من يدرك عمق المأساة التى يعيشونها ، وهل هناك أسوأ من أن تعيش ألما يراه كل الناس ولا تدركه أنت!.

فمضت القرية من جيل إلي جيل تحمل على عاتقها وصايا وجرائم من سبق ، دون الحيد عنها قيد شبر ، إذ أن مع انتشار المدارس والتعليم في المراكز والقري كان حظ جرجاوة منها مدرستين يتيمتين لا يطرقهما غير بعض الذكور كنوع من الترف لدي آبائهم ، أما الإناث فكان من (العيب) مخالطة الذكور في التعليم، حتي ولو كانت المرحلة هي الإبتدائية والإعدادية.

نشأ عثمان نشأة ريفية طبيعية لا تختلف كثيرا عن باقي أقرانه ، حياة رتيبة لا جديد فيها ولا رحابة في مفرداتها: البيت .. الحقل .. والمقهى الذي يجتمع فيه مع بعض الأصدقاء كلما كانت هناك سانحة ومشيئة للظروف.
إلا أنه حاصل على دبلوم كهرباء من مدرسة الصنائع ، وتنطوي نفسه على أمنية (خطيرة الشأن) صعبة المنال في واقعه الصغير ، تراود عينيه كحلم عصي شديد ظل يحمله في نفسه كصخرة سيزيف ـ طوال شهر كامل ـ فلا يبوح به فيهدأ ، ولا ينصرف عنه هاجسه فيسكن ، ولكن كيف يواجه والده بطموحه في استكمال دراسته والالتحاق بالمعهد الفني الصناعي الذي يمكّنه من الوصول إلي كلية الهندسة ليصبح (المهندس) ، بدلا من موظف بشركة الكهرباء (بدبلوم) كما سعى له والده لدى الوسطاء!

إن الوالد إن كان سعى له في الوظيفة فلأنها بجوار القرية ، وعدد ساعات العمل لا يتعد ساعتين أو ثلاثا كما هو الحال في الوظائف الحكومية ، ويزيد من هذه الوظيفة ميزة أن بإمكانه ألا يذهب ويقوم بالإمضاء بدلا منه أحد زملائه المخلصين إن شغلته أعمال الحقل. أما دراسة الهندسة فتستنزف وقتا ومالا ، ثم (المهندس) ستقف عثرة بينه وبين الطين والفلاحة والمواشي وتوزيع ألبانها ، ومتطلبات المزارع.
لكن ألا من أمل في الحل ..
لا يمكنه الانتظار أكثر من ذلك ، مضى شهر من الإجازة الصيفة ، ولم يبق سوى شهر للالتحاق بالمعهد وإجراء الاختبارات اللازمة للقبول ...
عليه مواجهة الأمر مهما كلفه من صعوبة ومشقة .
فحسم أمره واتجه إلي والده في مضيفة البيت وقت احتساء الشاي وتدخين النرجيلة في أحضان العصاري حيث هدوء الشمس ، وعزم على مصارحته فيما فكر وفيما يريد .. لم يكن يعبأ كثيرا برد فعل الأب ، فقد اتخذ قرارا حدث به نفسه طيلة الطريق ، وأعد كلماته ، وبداية حديثه:

"السلام عليك يا أبي ، جئت أحدثك في أمر غاية في الأهمية بالنسبة لمستقبلي ، فقد عزمت على الرحيل إلي القاهرة لاستكمال دراستي بالمعهد الفني الصناعي وأرجوا مباركتك وعونك".
حينما يحلم المرء ويتمني على الدنيا ، توضع في قلبه روح طفل صغير ، يجعله يتقبل أي مخاطرة لأنه يجهل بروحه تلك خطر الخطر في سبيل تحقيق رغباته وأمانيه ، ومن العجيب أن الخطر يتصاغر أمام الأطفال.

دلف إلي الدار وسأل أخاه الأصغر عليّ ابن التسعة أعوام عن والده ، فأشار له بيد متسخة وفم مكتظ بالمانجو تجاه المضيفة ، ولّما وصل إلي والده بادره قائلا:

ـــ ابن حلال مصفّي .. تعال يا عثمان أود الحديث معك.

جلس الشاب ونسي إلقاء السلام لشدة ارتباكه واستغراقه في التفكير، كان الوالد يضع بعض قطع الفحم على حجر النرجيلة بتؤدة ، ثم تنفسها فتحركت المياه وفرقعت ، وتنفسها بلذة مفعمة براحة البال واستشراف سعادة آتية ، ثم استدار لعثمان بوجه مبتهج ، فقال عثمان:
ـــ أبي جئتك في أمر غاية في الأهمية بالنسبة لمستقبلي ...
فقاطعه الأب قائلا:

ـــ القلوب عند بعضها ألم أقل إنك ابن حلال .. تعرف من كان عندي قبل مجيئك ؟
فقطّب حاجبيه مستفهما وشرد بذهنه ، إذ توقع أن والده يخبئ في ثناياه شئ بعيد عن مبتغاه.
أخذ أنفاس متوالية من النرجيلة وتابع قائلا بعد سعال حاد وبصقة ممتلئة ألقاها خلف الكنبة:

ـــ عمك الحاج فؤاد .. شيخ البلد ، وتحدثنا عنك وعن علا ابنته ، رأيتها اليوم في طريقي إلى الحقل كانت مع والدها أثناء مروره على أرضه ، قلت هذه من يستحقها عثمان ابني حبيبي وسندي ، تصور يا عثمان كدت أن أقرأ معه الفاتحة ؛ لكني ارتأيت أنني أتعدى الأصول ، فاتفقنا على الخميس القادم على قراءة الفاتحة .

فاتحة وكتب كتاب وزواج ! والله لن يكون.
فقال بصوت متحشرج:

ـــ لكن يا والدي ..

نزع الوالد خرطوم النرجيلة من فمه فانسحب بخفة على شفتيه ، واتسعت عينيه لما أبدى عثمان من (لكن) ، وسكت لبرهة ريثما ينطق عثمان فتتأكد لديه صحة ما قاله صابر ـ ابنه الأكبر ـ عن عزم عثمان السفر إلي القاهرة ، ولما لم يجد منه وصلا لسالف قوله قال له بعين محذرة:

ـــ لكن ماذا .. أكمل
ـــ بصراحة ، كنت أريد السفر إلي القاهرة لاستكمال تعليمي حتي أصبح مهندسا.

ثم بلهجة محفزة أردف قائلا:
ـــ ما رأيك يا أبي أن يكون ابنك المهندس عثمان خليفة ؟

كان الوالد باسطا قدميه على الأرض حيث تلامس ذيل قطة بالقرب منه ، فرفعها على الكنبة وتربع في جلسته ، ففرت هاربة من حركته فلعن القطط المترددة على البيت وفنائه ، ثم تناول خرطوم النرجيلة بفمه ودخنها ونظر

لعثمان نظرات باردة وأطلق ضحكات هازئة متقطعة أرخت بظلال اليأس على وجه عثمان.
وصمت بعض الوقت تابع خلاله تدخين النرجيلة ، كانت عين عثمان تتردد بين شفتيه القابضتين على طرف النرجيلة بعنف وعينيه اللامعتين الغائرتين في حاجبيه الكثيفتين.

نحي الوالد النرجيلة جانبا ونظر إلي عثمان الذي ازدرد ريقه على الفور

ــ اسمع ، أنت لا تعرف ماذا يقول الناس عن تأخر زواجك إلي الآن ، حتى ظنوا أن بك عيبا يمنعك ، كنّا نتعلل بالمدرسة ، وقد انتهينا منها وحصلت على الدبلوم ، وتحملت معك رسوب السنين التي فشلت فيها .. و الآن عليك أن تدير كلامي بجدية ، وتستعد ..

ثم بلهجة آمرة لا تخلو من عسكرة الحوار بين قائد وجندي تابع قائلا:
ــ ما يهمني هو أن تقوم بواجب الأرض على أكمل الوجوه ، وأن تتزوج لتخفف العبء عن سمية زوجة أخيك التي هلكت في خدمتنا هنا وفي الأرض، فهمت.

قال مستعطفا:
ــ يا والدي ليس هناك ما يستدعي كل هذه الحدة ، كل ما أرجوه أن يتسع صدرك لي وتنظر إلي مستقبلي نظرة عطف ، وما تخافه فلن يكون ، وسأكون الأحرص على طاعتك ورضاك.

لم يزل هناك الكثير من الكلام ليقوله لوالده (مستعطفا) فذلك شئ يحسنه ويجيده بتلقائية وصدق ، لكن والده لم يمهله ولم يستمع لنبضه الملتاع ، فرد بحزم:
ــ انتهى الموضوع وخلص الكلام.

ثم قام من مجلسه ورمى خرطوم النرجيلة بعنف واتجه إلي المسجد لقرب صلاة المغرب حيث خيوط الشفق بدأت في الزحف نحو السحاب تلونه ، وانحسرت الشمس على رءوس البيوت والنخيل من حولهم.

ترك عثمان زامّا شفتيه حتى كادتا أن تدميا من صنيع أخيه الذي فشا سره بسوء ، وحرّض والده عليه واستعطفه بتعب زوجته ، وقد عهد إليه أن يحسن في الحديث عنه ليسمح له بالسفر.

منذ عدة ليال اجتمع معه في هذا المكان وحدثه: "صابر أرجو منك أن تسعي لدى والدي في هذا الأمر ، فأنا لا أتخيل حياتي بدونه ، هذا هو حلمي لو أنجزته لي لكان معروفا لن أنساه لك .. أنت تعلم حديث والدي المستمر عن الأرض ورعايتها ، لذا قد يعارض تغيبي في القاهرة ، وهذا هو معروفك الذي أنتظره .."

طمأنه صابر بابتسامة وأخبره أنه يتمني له كل الخير ، وأن ما سيقوله لوالده في هذا الشأن ليس معروفا ، بل واجب وفرض يجب تأديته.

لكنه أخبر والده بأشياء أخرى أعانته على الرفض ، وغلّف ذلك كله بغلاف زاه.

ارتسم السخط والتأفف على وجهه أكثر ..

فلم يكن ذلك بقصد إقامة الأفراح والليالي الملاح والتنعم بالحياة كرجل له أسرة وأبناء كما أوهم والده ، ولكنه أراد منعه من مواصلة دراسته حتى لا يتفوق عليه أكثر فأكثر ، من دبلوم إلي جامعة إلي مهندس ، أما هو فمن حملة شهادة الابتدائية مع رسوب في السنة السادسة .. انفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة ، ولم يذهب بفكره إلي كلام والده بشيء ، ولا تردد بذهنه أي خاطر عن (عُلا) ولا والدها الحاج فؤاد .. لا معني لإعادة الكرة من جديد ، فقد أيقن ألا جدوى من الحوار ، فهو يعرف والده جيدا ، فإما أن

يضحي بمستقبله ويستكين لرغبته ، وإما أن يرحل إلي القاهرة ليكمل دراسته فيقتلع جذوره من جرجاوة إلي الأبد.
وانتهى أخيرا إلي الرأي الأول.
تقلبت عينيه في السماء عبثا ، ثم تنقلت بين النخيل وأشجار الفاكهة في الحقول القريبة ، وسارت النظرات تقفوا أثر والده في الطريق الممتدة المؤدية إلي المسجد ، لم يتغير هذا الرجل ، هو كما هو ، طبيعة أذليه كطبائع الوجود كالجبال والبحار والصخور ، معلق بيديه كل بشيء في هذه الدار ، مستبد في استخدام المعاني السامية التى تنتشر في سماء العقيدة ويسيء استخدامها بغير فهم .. "أنت ومالك لأبيك" ، وما دام الأمر كذلك فأنت في القيد والغل إلي موته أو موتك ، ومع مثل هذا ، فأنت ميت قبل الموت ، وإن كان موت الله خير ورحمة.
كيف لم ينصت إلى رغبتي في استكمال البناء والتشييد ، سأكون ثاني رجل في جرجاوة يكون مهندسا ، ولكن الغبي أوعز إليه بقيمة الجهل وضرر العلم.
الأغبياء فقط من يرون في إعمال العقل وتحصيل العلم شرا مستطيرا ، إذ يفتح العلم للإنسان آفاقا جديدة لم يبلغها الجاهل ، ولا يستطيع مسايرتها ، فينصرف الناس عنه ، ويبقى وحيدا تحت قباب الجهل كإله بلا مؤمنين.
يظن صابر المتربع على عرش والده وخليفته ومدبّر شئونه في الحقول والمزارع أنني قد أنحيه وأسرق مكانته من والدي ، ولم يفطن الجاهل أنني أفر مما يتمسك به هو !
لم يكن فشلي في أربع سنوات دراسية إلا بطاعته في ترك الامتحانات والذهاب للحقل لمساعدة أخي ، وماذا عليه لو تحمل تعب ساعات قلائل هي وقت الامتحان ثم أعود إليه ، ولماذا لا تظهر أوجاعه وآلامه وشكواه إلا في ساعات الليل الأخيرة قبيل وقت الامتحان !!!

أيام البائسة لا تتغير ، وكأننا خلقنا لنكون أسرى نرزح في أغلال أفكار و رؤى غيرنا ، ودائما تعود الأيام كما كانت في حالك عصورها السالفة ، تنثر على مرافئ العمر خيام إخفاقات جديدة ، تتشابه أسنانها في نهش هذا الأمل وذاك الطموح وتلك الإرادة المهترئة ..
بل تحتد أسنانها مع الزمن أكثر وتطول أكثر لتصل إلي القلب فتدميه وترديه ، وتمتد يدها إلي الداخل فتعتصر كل وميض نابض.
كم من وقت مضى بعد الرضوخ لإرادة الزمن الفائت لتهجر طموحات كانت صغيرة وقتها ، ولكنك يوم استكنت وتركتها احتقارا عند الضغط عليك وهوّنت على نفسك لتخدع ضميرك ولتسلم لك الاستكانة ، أجهضت آمالا كبارا .
لم يشعر عثمان بدخول علي أخيه الأصغر ابن التسع سنوات وبجلوسه بين يديه على الكنبة المقابلة له ، تلون وجه علي بالحزن والرثاء لحال أخيه ولما دلت عليه نتائج جلسته مع والده ..
ناداه برقة بالغة
ـــ عثمان
انتبه عثمان لوجوده دونما التفات أو رد كأنما نسي الكلام أو نفدت رصيده في حلقه ، فأردف علي قائلا:
ـ لا أدري ماذا أقول لك ، أنا أعرف مدى حبك للدراسة وأيضا أعرف مدي ولع أبيك بالأرض ، لذا تركت مدرستي فأنا أعرف النهاية ..
سكت على لبرهة ليشاركه الحوار لكن عثمان ظل متلجما بصمته ، وانفصل عن علي ولم يشعر به ، فألقى على كلمته الأخيره وقام من مجلسه
ـــ هنا الأرض لن تعدم من يرعاها ، فأنا وصابر هنا مع الفلاحين المستأجرين، أما أنت إن تركت فكرة السفر فلن يقوم بها أحد عنك.

٢

كان من عادة الحاج خليفة إبراهيم إذا ذهب إلي صلاة المغرب لا يعود إلى بيته إلا بعد صلاة العشاء ، ثم وقتا آخر يقضيه في سمر مع أصدقائه إما أمام المسجد أو المقهى ، كان الليل قد دخل وتلفعت القرية بظلامه ، وأضاءت الأعمدة بنورها الخافت فارتسم الضوء أسفلها كبقعة لا تتعدى مترا بعيدا عنه ، وألقى القمر بظلاله على البيت ذي الطوابق الثلاث ، فلمعت أطراف النخيل المحيطة به لضوء القمر الفضي ، كانت إضاءة البيت قليلة ليلا ، فما ثمّ ضوء ينبعث منه سوى نافذة في غرفة نوم صابر في الطابق الثاني ، إضافة إلي مدخله .

جلس عثمان في بهو البيت ترفه إضاءة خافتة ، تكاد ألا تفصح عن معالمه فيها ، يجول بعينيه في أرجاء البيت الفسيح وفي مقتنياته بنظرات عابثة ، والتي ما كادت تبدو لضعف الإضاءة الداخلية ، وتبدت أحلامه كأزهار مجهدة بوادي الخريف الميت ، فما ضر الزمان لو استقام معه في طموحة ، أو عصى عليك أيها الزمان أن لو كانت صروفك غير ما آلت إليه !!!
أستغفر الله العظيم
كانت كلمة واحدة كفيلة أن تحول رأي الوالد إلي طريق آخر ، لكنه لم يرد أكثر من أن نكون كلنا في زمام واحد إذا كان هو ـ صابر ـ طرف هذا الزمام وفاته القطار ، أو فشل في اللحاق به ..
أيبلغ الحقد من البجاحة والسماجة أن يتسلل كلص إلي قلب أخ ، وتنفخ في أواره النفس المشيطنة حتى تهيجه على أخيه ..
ولما لا ، فدفتر الجريمة الإنساني بدأ بسطور حمراء كتبها أخ من دم أخيه !

لكن الإنسان يشيب ولا يشيب الأمل بين جوانحه ، ولكن هنا .. في جرجاوة ، وبين يدي خليفة إبراهيم فالأمر مختلف ، فإن الحكمة التى تعلمها مع السنين في هذا البيت هي: ما اجتمع خليفة إبراهيم وأحد أبناءه إلا كان حديث الأرض وتنميتها والحفاظ عليها ثالثهما .. لم نزل نرزح في التراب ، وكأننا سندفن في أوراق الكافور !!
"الأرض عرض ، لا ينبغي إهمالها أو التفريط فيها ، يجب رعايتها كما يرعي الرجل أهله ، والمرأة رضيعها وأكثر .."

لم تنتظره ؟ ، قضي الأمر ، ليس أكثر من شماتة ستبدو في عينيه إذا أخبرته بما آل إليه اجتماعكما ، أليس هذا ما يحرص عليه ويتمناه ، ألم يخبرك في اللقاء الأخير أثناء نصحه المزيف أنه بمفرده حبيس التراب ويريدك بعضده أخوان في وجه الوجود ؟ ، ألم يخبرك أن التلمذة عار على شارب مستقيم وصوت غليظ ، وأن أمثالك في المجالس العامة تسبق أسماءهم كلمة (أبو) توقيرا واحتراما ، أتظن أنهم سيذكرونك (بالمهندس) أو (الأفندي) على طريقة الأربعينيات ، إنها قرية لا تقيم وزنا لعلم ولا شهادة جامعية ، ورقة الحيازة الزراعية أهم وأجل شأنا.

ماذا يهمك في الحديث معه ولم تنتظره ؟ ، قم من هذا الظلام الذي يشبه الظلام المخيم على خلال نفسك ودروبها ، انفضه عنك واستقبل الحياة كما هي ، استكن لرغبات الآخرين ، دع الأيام تفعل ما تشاء ، كن كخرقة بالية مهملة في مهب الرياح تتلقفها سعفات النخيل وغصون الأشجار طالما لا تملك في نفسك حق القرار.
تريد أن تقيم عليه حجة أخ غدر بأخيه ؟ الأمر أهون من ذلك ولم يصل إلي الغدر ، لا تضخم الأمور بأوهامك ولا تهول من خطرها ؛ فالحياة وجهات نظر ، وأنت جزء من حياته بما أنك الصغير المدلل (المتعلم)، إن ناقشته فيما

تفكر فيه سينكره ، ويتودد إليك بابتسامة منافقة تُخفي هم السنين القادمة الذي زرعه بيديه في طريقك .. ابتسامة تنحدر من شفتين تسيلان بدم طموحك المهدور الذي لا تستطيع ريّه بشربة ماء أخيرة قبل موته!

تسرب الصوت إلي الداخل خافتا آتيا من بعيد كهمهمات لا تُفصح عن معني ، كانت للحاج خليفة إبراهيم ، وما لبث يستوضح بأذنه ما يدور قبل ولوجه البيت حتى رأى والده يدلف إليه في البهو يتبعه صابر وهو يتهادى بين يديه ككلب حراسة أمين ، فبديا كشبحين في مقبرة مهجورة ، سبقه صابر إلي زر الكهرباء فأضاء المكان.

تفاجأ به والده في الظلمة

ـــ عثمان !

فقام له ، وقبّل يده

ـــ تقبل الله يا والدي

ـــ منا ومنك إن شاء الله .. لم تجلس في الظلام وحدك ؟

قالها الوالد وهو يجلس على الكرسي المقابل ، مع ابتسامة مشرقة ذات مغزى على وجه صابر الذي قال:

ـــ لعلّه يحب ، والإضاءة الخفيفة من ضرورات الرومانسية

ـــ هه !

استبهم الوالد كلام ابنه الأكبر ولم يفهمه ، فشرح قائلا وعينه مستمتعة بملامح عثمان الكسيرة الغاضبة:

ـــ هذه أيامه يا حاج ، دعه يختلي بحبيبة القلب بينه وبين نفسه في هذا الجو الشاعري

صدق على كلامه صارفا نظره إلي عثمان قائلا:

ـــ فعلا حبيبة ، المفروض كنت صليت شكر لله أن جعلها من حظك ونصيبك يا عثمان .. الله ، لم السكوت ؟

ثم قام الوالد، فقال صابر بنبرة مستفزة:
ـــ الفرحة أسكتته يا حاج..

فقال وهو ينصرف إلي غرفته بالطابق الأرضي:
ـــ على خيرة الله ، اسمع يا صابر لا تحمل عثمان عبء الحقل ولا مشاغله ولا المزارع خلال هذا الأسبوع ، يكفي ما فيه من مشاغل ، وربنا يتمم بخير وعقبال ما نفرح بابنك خليفة

فقال بفرحة شقّت عن أضواء المدينة تتلألأ في صدره
ـــ طبعا يا حاج ، يوم المني
ـــ تصبحان على خير
رد وحده التحية ، وجلس في غياب والده يشعل سيجارة حشيش ، كان يعلم أن الرائحة لن تصل إلي غرفة الوالد حيث النافذة الواسعة فوق رأسه تصب عليه نسيما لطيفا تعجز أبخرة الحشيش أن تصارعها على أنفه.
فلفها في تؤدة وتمهل ، بحركات وهمسات ولمزات كيدية وهو يهمهم مترنما:

يـا فؤادي لا تسل أين الهوى
كان صرحا من خيال فهوى
اسقني واشرب على أطلاله
وارو عني طالما الدمع روى
كيف ذاك الحب أمسى خبرا
وحديثا من أحاديث الجوى.

أدرك عثمان أنه كان علي خطأ عندما جلس بانتظاره ليعاتبه فيما فعل ، ولكن الآن فإن خير طعنة يوجهها المقتول لقاتله ،ألاّ يُنعم عليه بخوف يراه في عينيه ، أو رعدة يحسها في جسده تزيده من متعته بقتله ، فقط أشهر سيف بأسك وجَلّدك وقل للموت لن تقهرني لأنني لا أهابك.
كم أنت نذل حقير !

أسكن السيجارة بين شفتيه وسأل عثمان قائلا:
ــ معك كبريت ؟

لم يكن يريد ما سأل فعثمان لا يدخن ، ولكنه استعد بخيله ورجله ليبدأ هجوما ساخرا كاسرا شامتا منه ، لكنه لزم الصمت ، تحسس صابر جيبه فأخرج منه علبة الثقاب وأشعل سيجارته وأخذ ينتشيها باستمتاع يستلذه.

ــ صعب أن يفرض علي الإنسان خلاف ما يرغب .
قال عثمان:
ــ بالفعل صعب .

ظن أنه قد أحرز هدفا فتابع قائلا:
ــ لو كنت منك ما وافقت على هذه الزيجة الجبرية مقابل المأمول والمطلوب
ــ ومن قال إن زواجي من علا ليس مأمولا ولا مطلوبا ، إنها على ضوء مفاهيم (الرومانسية) في كتب الشعر غزال يطلبه كل صياد ..
وأخذ يذكر من محاسنها ما ليس موجودا في زوجته سمية ؛ غيظا بغيظ ، وكيدا بكيد ، وكمدا بكمد .. فهو يعلم نقائصها جيدا التى طالما ذكرها له تحت تأثير ذوبان عقله في ورق الحشيش

بدت آثار كلماته في وجهه فانتفخت أوداجه وبرزت شراييه ولم يعد للسيجارة طعم ، تبخر سكرها من عقله فجأة وبدا كمن أهدى لسجينه مفتاح زنزاته ظنا منه أنه يضع عليها قفلا جديدا

ـــ كيف تصفها ولم تر منها ...

فقاطعه بنشوة وهو يلقي بظهره للخلف
ـــ لا .. لا تشغل بالك رأيتها أكثر من مرة ، وتبين لى أنها ليست أقل من ملكة لا تدانيها امرأة في جرجاوة ، تصور يا صابر قبل أن تدخلا علي كنت أسبح معها في بساتين الورود ، وكنت أتساءل لم لا نغير اسم جرجاوة ونطلق عليها اسم علا ؟ (ثم مبتسما) أليست علا أرق وأجمل وألطف ؟
ـــ نسيت طموحك وأحلامك يا .. يا بشمهندس ؟ !!
ـــ غيرت رأيي واقتنعت بكلامك الذي قلته لوالدي ، فما لنا وللتعليم ، يكفي أن علا ابنة شيخ البلد

أثارته بعنف كلمته الأخيرة (شيخ البلد) فهي تكئ عنده موضعا ما ، حيث سمية ابنة لفلاح لا يملك طينا .. ليس أكثر من مستأجر.

هؤلاء المحبطون الحاقدون كثيرون حولنا في الحياة كالميكروبات التي لا نراها، وكالفيروسات التي تهاجم المناعة بالجسم لتُهلكه لا لشيء سوى أنها ما خلقت إلا لتُفسد ، وُضعوا في الحياة ككلمة الشر في قاموس اللغة لا تحتاج إلي بحث عن معناها ، فهي فعل يحوي مصائب ، أكثر منها كلمة مصاغة من حروف.
فرك سيجارته في المطفأة قبل أن تنتهي ووّلي وجهه صاعدا ، وما لبث أن علا صوته في شجار مع سمية ، فنزلت سمية تحمل صرة ملابسها وهي تبكي فخرج الوالد على الصوت .

سألها عثمان:
ـــ إلي أين في هذا الوقت ، ماذا حدث ؟.
كان صابر يقف واضعا يده على درابزين السلم ، فأشار إلي أخيه بسبابته بعينين حمراوين من الغضب والحشيش
ـــ أنت مالك ؟.
احتمت سمية بجناح الحاج باكية
ـــ يرضيك يا حاج أمشي بالليل ؟.
ربت على كتفها وقال بصوت مرتفع متوجها بحديثه لصابر:
ـــ لا بالليل ولا بالنهار .

تدخل عثمان قائلا:
ـــ ماذا تقول الناس عنا! نطرد لحمنا خارج بيوتنا ليلا ، فكيف يأتمنونا على بناتهم ونحن مقبلون على نسب جديد ؟.
فقال صابر بحدة أكثر خرج على إثرها خليفة الصغير يفرك عينيه باكيا:
ـــ قلت أنت مالك يا بارد ؟ ، لا تتدخل فيما لا يعنيك .

قال بصوته الذي أسكت الجميع:
ـــ أنا قلتها كلمة .. لن يغادر هذا البيت أحد ما دمت حيا .. يا أخي عيب عليك ، احترم نفسك !.
ودفعها برفق للأمام وأردف قائلا:
ـــ اطلعي يا سمية .
ـــ أعصابك يا صابر ، ربنا يسترها عليك من أمراض الغضب ، ولا تنسي أن زواجي وشيك .

أفرغ غيظه في دفعة قوية في ظهر زوجته التى كادت أن تنكفئ على وجهها لولا أن استندت على درابزين السلم ورمق عثمان بنظرة كاسرة شديدة .. لم يشأ أن تستمر الوقفة بوجود والده أكثر فرائحة الحشيش لازالت مخيمة في أرجاء البيت ، فمعرفة الوالد بأنه لايزال يدخن الحشيش يباعد بينه وبين ما يخطط له ، غير أن فيه شبهة لعلاقة ما لازالت مستمرة بينه وبين عبد الجليل ، فانصرف خلف زوجته يعتصره الغضب دون كلمة ، وسرعان ما عاد الهدوء إلي الدار من جديد ، فعاد الوالد إلي غرفته وأغلق بابه ، وخرج عثمان يتمشى في جنبات القرية فقابله علي عند باب الفناء الخارجي فسأله أين كان ؟ فلم يزد عن أنه كان يلعب وتركه ودلف إلى البيت.

كانت الليلة قمراء ، أزهر القمر فيها وتجمّل ، يخيم الهدوء والسكون بقوة على المنازل .. إلا أصواتا منبعثة من الحقول والجداول لنقيق الضفادع وعرير الصراصير ونباح الكلاب في سيمفونية مزعجة هابطة مشمئزة تخدش هدوء الموت المنتشر في ثنايا القرية ، إضافة إلى أصوات مواتير المصانع على أطراف القرية التى في طريقها للسكون بعد عمل يوم شاق.

الليل دائما أفضل الأوقات للتفكير والتخطيط ، حيث صفاء الذهن وخلوة المرء بنفسه ، لذا طويت الأرض تحت قدميه ولم يشعر إلا وأحد أصدقاء المقهى يناديه بالدخول قائلا: تعال يا عريس.

كان المنادي حماد ، صديق في مثل سنه ، بسرعة البرق انتشر الخبر في القرية أكثر من أي فضيحة يطير شررها ..
ـــ شاي يا حسن للعريس على حسابي .

ابتسم عثمان بين رفاقه الثلاثة قائلا:
ـــ شكرا عقبال ما أجاملكم في الأفراح

لمزه سعيد سائلا:
ـــ إذن ستؤجل دراستك يا (بشمهندس)

كان يود لو أمسك بكوب الشاي المغلي الذي وُضع لتوّه على المنضدة فأفرغه على رأسه الصلعاء ، ثم يذكر له أمه بأفظع الشتائم ، لكنه ابتسم

ـــ إن كان على التعليم فأنا لست جاهلا ككثيرين من شباب القرية ، فقد حصلت على دبلوم الكهرباء هذا العام ، وقدمت أوراقي للتوظف بوزارة الكهرباء غير الأرض وشغلها ، بالإضافة إلي زواجي من ابنة شيخ البلد.

خسف لسانه في غياهب فمه وسكت ، وكسرت شوكة عباس الذي أراد أن يطنب في هذه الطريق بعد سعيد لكن عثمان بادره بما يؤسف ، ضحك حماد ضحكة مجلجلة وقد أعجب برده ، وناوله سيجارة قائلا:
ـــ مبروك يا عم ألف مبروك وعقبالنا.

سار عثمان يجر الصمت في أذياله على شاطئ الترعة لا ينبس بكلمة ، إذ لا تزال نفسه في طور هضم ما حدث ، وتوقع واستيعاب الأحداث القادمة ، هو لم يصل بعد ـ نفسيا ـ إلي درجة التسليم للواقع العنيد .

ولكن إلي متى اصطناع الأستار الملونة حول أحزاننا دون التماس دواءها ، وإلى متى ادعاء أن ما هو كائن هو خير مما نطلب ، دون أن نقف على مشارف آمالنا ونرى قبابها ولو من بعيد ، ربما لو مضينا خطوة واحدة لجرّت خطوات بعدها ، حتى لو فشلنا فعلى الأقل أننا سنجد جوابا لسؤال النفس في المستقبل لو سألت لم لم تفعل ؟: عذرا قد حاولت.
كسر حماد حاجز الصمت قائلا:
ـــ أعرف أنك حزين على الجامعة ، وعلى طموحك الذي يراه البعض ليس أكثر من تفاهة وحمق وحلم هزيل لا يستحق الجهاد في سبيله ، لكنني أرجو

لك أن توفق لفكر صحيح تصون به حياتك ومستقبلك ، فلم أقتنع بهذه الفرحة المستعارة التى أبديتها أمام هؤلاء الحاقدين.

ـــ اطمئن ، فما على سوي الاستسلام والخنوع ، وذلك شيء أحسنه .
ـــ يا صديقي الأمل يتواري في النفس كالداء الخبيث لا تراه ، لكنه موجود، فإن عجزت عن تحقيقه أو السير في سبيل تحقيقه هبّ في وقت عصيب كوطأة الوجع ، فيدفعك إلي ما لا يمكن حسبانه.
ـــ وماذا علي أن أفعل ، الأبواب سوداء مغلقة يرفها ليل دامس لا يمكنني الاهتداء إلي أقفالها.
ـــ تصالح مع نفسك ، إما أن تنسي الجامعة ، أو تظل مريض الأمل في وضعك الجديد.

وعندما لم يأنس منه ردا لشروده وقف أمامه قائلا:
ـــ عثمان لا ينصحك إلا صديق حميم ، يفرح لمسراتك وتغصه أحزانك .. عندما تنظر للعالم من خلال مشكلة أنت فيها ، فسترى الكون كله تلون بهذه المشكلة ، ولن تهنأ بشيء من الحياة ، فإن المرء إذا سيطرت عليه فكرة الموت فلن يرى في هذا الوجود سوي جثة هامدة يرفها الذباب وتعلوها الغربان.

٣

بعد أدائه لصلاة الظهر ، أرسل الوالد ابنه الأصغر إلى عثمان يخبره بأنهم مدعوون على العشاء في بيت شيخ البلد ليتجهز ..
جاءه علي في ثياب رثة متسخة من أعمال الحقل ، فحدثه سريعا ببعض ما كان من شأن والده وأخيه الأكبر صابر حوله اليوم وكلامهما عنه ، ومما أكد عليه أن صابر كان في غاية البهجة والطرب لهذه الزيارة.
ثم مضى مسرعا خوفا من بطش صابر إن تأخر.

صعد إلي غرفته بتؤدة وتمهل لثقل الهم الذي تحمله نفسه لما سمع حتى انتهى إلي أسفل نافذة غرفته ، فألقى بجسده على كرسيه يطالع أعواد الريحان في المزهرية الفخارية دون اكتراث لما يرى .. نظرات عابثة مترددة ، ونفخات متقدة آتية من بعيد ، من قيعان براكين النفس المشتعلة ، المطبقة على ما فيها من أحلام وآمال وطموحات تريد أن تتحرك وتفك قيد معاصمها .. المخيمة على إنسان يريد أن يكونه ، لا هذا الذي يسير بين الناس ويريده الناس .. يريد أن يتحرر.

يعلم أن الإنسان السوي هو من يتخذ من طموحه سيفا ومن إرادته درعا في معركة الحياة ، فيحطم كل قيودها ويزلل عقباتها ، لا أن يبقى كريشة في مهب الريح ، أو كجثة هامدة بين يدي الحياة تقلبها كيفما شاءت ، وشاء لها غيرها ..
لكنه يخضع ويخضع ويخضع ، ثم يسكب على جراحاته ترياقا فلسفيا لتهدئتها ، ويلتمس الأسباب والمعاذير ليستر فضائح الضعف وهو يراهم يمسكون بدفة حياته وشراع آماله فيعبثون بها كيفما شاءوا ، وما التماس العلل إلا ضعف إلي ضعف ، وخيبة إلي خيبة ، وانكسار إلي انكسار.

وضع وجهه بين كفيه وفركه بعنف ، وضغط مقلتيه بسبابتيه بشده حتى كادتا أن يفقعا ، وما رفعهما حتى بدا وجهه كبقعة الدم ..
إنه وجه السجين الذي بداخله الذي ضج بالقيود وأنف منها ، يستصرخ سجانه ليهدم الأسوار .. وبيده القفل والمفتاح !.

ومع الغروب ، كانت الأسرة في طريقها إلي بيت الصهر الجديد ، ونشوة المصاهرة بادية على وجه الوالد طول الطريق والتي تترجمت في كلمات مدح للرجل ووضعه الاجتماعي في القرية. "مبارك عليك يا عثمان" أكثر الكلمات التي ترددت مع نهاية كل مقطع من كلامه ، لكن عثمان استقبلها استقبالا سعيدا حتى لا يشمت به أحد ، أما صابر فكان في الخلف كبركان متأجج مكتوم لمدح صهر أخيه ، تتبعه زوجته وابنها دونما كلمة ، فهي تشعر أنه على وشك الانفجار.
هل تستطيع الاستمتاع بالألم إن لم تستطع الشفاء منه ، هذه نظرية ستناقشها الأيام القادمة ، و لعلها تكون ردا مناسبا على كلام حمّاد المزعج الذي لجّم لسانك ولم تستطع الرد عليه بكلمة سوي: كبر دماغك.

وصلوا إلي دار شيخ البلد مع خفوت ضوء الشمس في الأفق ، كان البيت مزينا بإضاءة كاملة ، وكأن الليلة هي ليلة العرس. وقفت علا خلف ستائر غرفتها في الطابق الثاني تطالع الفارس المنتظر مع بعض صديقاتها ، كان الحاج فؤاد على رأس البيت في استقبال الضيوف الأعزاء بين ولديه حسن وحمدان ، تقدمهما إليهم فسلم على الحاج خليفة واحتضنه ، ثم اختلطوا جميعا فتشابكت الأيدي والوجوه مقبّلة ومسلمة ودلفوا إلي الدار ، قابلتهم سيدة البيت بملابس نقشت بحروف العجين تفوح منها الخميرة ، فرحبت بالضيوف وهي تنشف يدها في ثوبها ثم انصرفت تتبعها سمية ـ تاركة طفلها يلهوا مع أقرانه الصغار ـ إلي مطبخها العامر بالسيدات الأقارب الذين جئن

للمساعدة في هذا اليوم ، وأعطت أوامرها بالإسراع في تحضير الطعام وتجهيز السفرة.
غشيت الفرحة والبهجة الجالسين ، وكان أسعدهم الشيخان اللذان سيلتقيان في نسب واحد عما قريب ، بعض التحفظ على هذه الزيجة أبداه حمدان الولد الأكبر لما فاتحه والده منذ أيام .
هذا البيت عماده الحكمة والتعقل والمشورة في كل شئونه ، لذا لم يجد حمدان في جلسته مع والده غضاضة في أن يبدي رأيه في رأي والده بالقبول ويهاجمه بضراوة ..
"لا أدري كيف اقتنعت ولم ترفض لوهلتك الأولي ، بل ارتضيت دون سبب معقول يجعلنا نقبل بمصاهرة هذا البيت ، يا والدي إن الجيرة قد تكون فرضت علينا هؤلاء الناس فيما مضي ، والعادة حكمت بصداقتهم ، فليس من العقل أن نختارهم لمصاهرتنا بعدما حلّت كل العقد الأخلاقية معهم على ما نعرف عنهم" .
تعلل الوالد بأن الزمن قد تغير ، وأنه يعلم عن عثمان ما يجعله مطمئنا إلي أن يضع كريمته في يده ، وطلب منه الهدوء والمقابلة الحسنة للناس.

لم يستطع إحكام شعوره أن يبدو أثناء اللقاء كما أمره أبوه ، فارتسم على وجهه التبرم والعبوس الذي كان يجاهده بابتسام مصطنع ، وجدها صابر فرصة ليتقرب منه ؛ فربما أفشل الزيجة التى سعى في إتمامها من قبل ، فجلس بجانبه ، ووسط ترحيبات وتسليمات لا تنتهي بينهما قال هامسا في أذن حمدان:
ـــ أظنك غير راض عن هذه الزيجة.
نفى حمدان بابتسامة جافة قائلا:
ـــ من قال هذا ، إن زواج البنات أسعد الأيام ، وأخوك رجل طيب وابن حلال

صُدم من إجابته لكنه أعاد الكرة من جديد بعدما تلمح أنظار الآخرين
ـــ أرجو أن يكون كفؤا !.

استدار نحوه ورمقه بنظرة مشمئزة ، كأنما يقول اغرب عن وجهي ، فقام على فوره إلي مكانه على يسار والده ، لاحظهما الحاج فؤاد فقال على فوره مبتسما:
ـــ منور يا أبوخليفة ، وعقبال خليفة .
قال الوالد ضاحكا:
ـــ خليفة الكبير أم الصغير .

ضج المجلس بالضحك ، حتى حمدان ندت عنه ضحكة صافية بلا تكلف
ـــ والله انوي وألف واحدة تتمناك يا حاج .

أشار إلى علىّ وعثمان قائلا:
ـــ البركة في الأولاد ، ورحم الله أم صابر كانت امرأة لا تعوض
ـــ رحمها الله يا أبو صابر

التقى عثمان وحسن على هوى واحد فتقاربا ، وانحسرا عن الجلوس يتجاذبان أحاديث شتى أغلبها عن سني الدراسة التي قضياها معا ، إلا أن صابرا ألقى بكلمة غير متوقعة للجميع
ـــ كان لعثمان حلم لكن الزواج سيقضي على أحلامه
دعابة جافة لا تشفع إن تعلل بعدها
توجهت أنظارهم إليه في دهشة ، كانت نظرة الوالد كحمم بركانية ، شخص إليه شيخ البلد بعين متسائلة ، وانتبه له عثمان وحسن باستغراب لما قال !.

وقف حمدان قائلا:
ـــ ونحن لا نرضى أن نحطم أحلام الناس ، ولازلنا على البر .
نظر إليه الحاج فؤاد فجلس وسكت ثم قال لعثمان بنبرته الرزينة الهادئة المعهودة وابتسامته التي لا تفارق وجهه
ـــ وما هذا الحلم يا عثمان ، اطلب وتمن
فبادر صابر قائلا
ـــ كان يرجو والده قبل أيام أن يرحل إلي القاهرة ليستكمل دراسته ويصبح مهندسا.

لم يفق الحاج خليفة بعد ولكنه في ذهنه قد سبه ولعنه وطرحه أرضا وهوى عليه بحذائه على وجهه ، ثم ما لبث أن استيقظ من دهشته على صوت عثمان وهو يقول

ـــ طالما في الإنسان نفس فلا يزال بإمكانه أن يدرس ويتعلم ما يشاء ، لكن رأي والدي بعد أن اتفقنا على طلب كريمتكم للزواج أخبرته أننا سنرحل إلي القاهرة لاستكمال دراستي فرفض حتى لا يتشتت قلبكم على ابنتكم ، فلم يوافقني حتى توافقوا.

يا ابن الكلب يا كذاب يا حقير .. هكذا ارتسم صدى الكلمات على وجه صابر ، أما والده فبرقت عيناه دهشة وسعادة لمنطق ابنه الحكيم ، ابتسم الحاج فؤاد معلقا:
ـــ المرأة بعد الزواج لا مكان لها سوى بيت زوجها أينما كان هذا البيت وكيفما كان .
ابتسم عثمان ناظرا إلي والده قائلا:
ـــ ألم أخبرك يا شيخ خليفة أنهم قوم عقلاء ولن يمانعوا .
هزّ رأسه في عجب ولمّا يفيق من دهشته حتى تابع عثمان قائلا:

ـــ أين العروس حتى ترى ماذا أحضرت لها .
أخرجها علبة قطيفة حمراء، ثم فتحها فكشفت عن خاتم ذهبي جميل
ـــ ما رأيك يا صابر ؟
ورحمة أمي لأقتلك يا ابن الكلب
ابتسم بضعف قائلا:
ـــ المهم أن يحوز إعجاب العروس .
قال أبوها مبديا إعجابه:
ـــ لو كان من قش لأعجبها .
ثم نادى زوجته بصوت مرتفع راميا رأسه داخل البيت فحضرت تمسح يدها بملابسها قائلة
ـــ نعم يا حاج .
مشيرا أن تصعد إلي علا وتعطيه لها
ـــ هدية عثمان لعروسه .
فتحت عينيها إعجابا
ـــ الله !.
الله يأخذك ، كلمة أراد صابر النطق بها مع صفعة قوية على قفا زوجة شيخ البلد وهو يرمقها بعينين حمراوين ونفس لاهث
ـــ السفرة جاهزة يا حاج .
قام موجها حديثه للحاج خليفة قائلا:
ـــ تفضل يا حاج (ومديرا بصره في جمعهم) تفضلوا يا جماعة .
لكنهم تباطؤوا فأردف قائلا:
ـــ قل لهم يقوموا يا حاج ، أهم أغراب ؟ أنتم في بيتكم .

ابتسم ممتنا لقوله ، ونظر إلي أبناءه نظرة آمرة فقاموا واتجهوا إلي السفرة في وسط الدار ، كانت زاخرة بألوان الطعام والفاكهة يتوسطها ديك رومي

كبير ، فتحلق الرجال حولها ، بينما اجتمعت النساء في غرفة جانبية حول مائدة أرضية كانت علا بينهن .

قالت أم علا وهي تحضر المزيد من نثريات الطعام من المطبخ وتكدسه أمام عثمان:

ـــ دوق وقول رأيك في نفس علا يا عثمان .

قال بإعجاب بعد أول ملعقة والعيون متطلعة إليه:

ـــ الله .. الله .. الله ، لم أذق بعد وفاة أمي طعاما كهذا ولو كانت بيننا الآن ما قالت غير أنها لن تأكل إلا من يدها:

قال والده مبتسما:

ـــ تسلم يدها زينة البنات .

أرى أصابع عثمان الخمس على قفاك بلون اللمبة الحمراء التي في حجرة نومك ، ألم تقل أن سمية قد تعبت من عمل البيت والحقل ، ها هو يفضل طعام زوجته القادمة علي زوجتك !.

ـــ ما رأيك في الطعام يا صابر .

ـــ حلو .

حلو يا ابن الكلب ، وحياة أمك التى قلت على لسانها كلام وهي في قبرها لن تهنأ يوما يا .. هه .. يا (بشمهندس) .

انبسطت الأيدي على المائدة وسرحت بين الأطباق ، ورفتهم حالة من السعادة والبشر ، وانطلقت النكات والضحكات حتى رجّت البيت كله، كان عثمان أكثرهم ضحكا ، بينما تظاهر صابر بالضحك مع التحديق المستمر لعثمان ..

ليس غيظ الآخرين شفاء لجراحك ، فجراحك أن تعرف جيدا من أين تنبع وفيما تصب وكيف علاجها.

كانت الضحكات المرتفعة تصل إلي غرفة السيدات ، فيضحكن على صوتهم بالخارج دون معرفة سبب الضحك ، ترادفها ضحكات ذات مغزى تنطلق من بنات تحلقن حول علا.

تجمعوا مرة أخرى ، لكن في الجزء الخلفي للسفرة ، حول مائدة مستديرة وضعت عليها أكواب الشاي ، يفصل هذا الجزء عن موضع المائدة ارتفاع نصف متر من أرض البيت الأصلية ، أحيط بدرابزين خشبي .
انهمكت النسوة في رفع أطباق الطعام عن المائدة وتنظيفها ، تفرسهن عثمان بحثا عن علا فلم يجدها بينهن ، بينما سرحت عيني صابر في موضع أثدائهن المستورة بلا طائل حتى انتهت إلى فريدة زوجة حمدان فلم تفارقها .

حضرت الأم وفي زيلها عروس الغد ترفل في ثوب حريري أزرق مزركش ذي كمين أسودين ، يتدلي حجابها الأسود حتي منتصف البطن ، تبودلت النظرات بينها وبين عثمان على استحياء دون ملاحظة أحد سوى صابر الذي ثبت نظره عليها لثوان ممتدة ، ألقت السلام على جمعهم وخصت الحاج خليفة بيدها ثم انسحبت في حياء أضحكه.
خيم الليل على القرية وودعت الدار زوارها في حفاوة بالغة ، كان في إثر الضيوف الحاج فؤاد وابناءه وزوجته ، بينما استقرت علا خلف ستار نافذتها المطلة على الفناء.
وعادوا جميعا إلي المضيفة ، تخفف الحاج فؤاد من عباءته وعمامته ونحى عصاه جانبا وأخذ شهيقا نمّ عن سعادته ، ثم نظر لزوجته بارتياح وقال بهدوء حالم:
ـــ ربنا يتمم بخير .

أشارت بيدها نحو السماء قائلة:
ـــ يا رب يا ابو حمدان ، عثمان جدع طيب وابن حلال .
حول نظره لحمدان بعين متسائلة ، لكنه سكت ، فقال:
ـــ ما رأيك يا أخي ؟.
ـــ الرأي رأيك يا أبي .
قالها بطريقة لا تنم عن اقتناع أو ارتياح ، وكأنه يفوض الأمر لأبيه ، فقال الوالد بجدية:
ـــ ماذا رأيت في الناس ؟.
ـــ صابر ..

زمّ الوالد شفتيه وسرح لبرهة ، إذ تفهم مرامي كلمته وما قصد منها ، صابر الذي رفع يديه نفاقا عند قراءة الفاتحة ولم تتحرك شفتاه ..
اتجه نظره إلي ابنته يتطلعها وهي تنزل على السلم تتقدم صديقاتها فودعتهن ورجعت إليهم وهي تضع عنها حجابها
ـــ مبروك يا علا وربنا يتمم بخير .
ـــ بارك الله فيك يا حسن وعقبال زواجك .
نظر الوالد إلى حسن بابتسامة وكأنه يسر إليه
ـــ بعد علا إن شاء الله بعدة أشهر .
ابتهج حسن لكلمته وغمز له بعينه مداعبا
ـــ علام اتفقتم يا حاج .
ـــ تأجل الزواج لثلاثة أسابيع .
ـــ ولم ! كفي الله الشر .
ـــ يا أم علا تعرفين أن ترتيبات الزواج ليست هينة ولا قليلة ، وتستغرق وقتا ، ليتنا ندرك الوقت قبل أن يدركنا ، وهذا ما قلته للحاج خليفة ولا داعي للعجلة واقتنع بكلامي.

ـــ على خيرة الله يا حاج .
نظر حمدان إلي والده بوجه جامد الملامح ، رمقه والده فرأى كلاما كثيرا متواريا خلف تلك النظرة ، لكنه تعداه إلى حسن قائلا:
ـــ رأيتك مع عثمان طوال الوقت وكأنكما صديقان فرق بينهما الزمن والتقيا فجأة.
ـــ هو بالفعل صديق قديم ، ولكن أواصر الصداقة وهنت منذ ثلاث سنوات بسبب دراسته التى انقطع فيها للمذاكرة ، ولكن كنا نلتقي بعض الأحيان صدفة على المقهى .

كانوا يتابعونه باهتمام حتى سكت ، فقال الوالد:
ـــ وما رأيك فيه ؟.
ابتسمت علا وكأنها أرادت أن تسأل نفس السؤال فتطوع والدها عنها فامتنت له
ـــ هو شخص طيب الأخلاق وابن حلال وعاقل ورزين ، يستطيع تحمل المسئولية كأي رجل.
مر بعينيه على حمدان ورمق ملامحه التى ظلت كما هي وزاد عليها التأفف وازدراء الحديث ، قبل أن يصل إلي زوجته التى بادرته قائله:

ـــ رحم الله أم صابر كانت امرأة طيبة كالنسمة ، لم تقصدها جارة بشئ وردتها خائبة ، ولم تكن تذوق طعاما في دارها إلا وتشرك معها جاراتها (ثم نظرت إلي علا بابتسامة) وكان عثمان من يوزع أطباق الطعام عليهن في صغره ، وكن يدللنه غاية التدليل.

ضحكوا جميعا سوي حمدان ، وهدأت ضحكة الوالد على وجه علا وهو ينظر إليها بعينين باسمتين ، فقامت خجلا فأمرها أن تجلس ، فأسرعت خطاها على درج السلم حتى انكفأت عليه وتابعوها حتى دخلت حجرتها

وأغلقت الباب ، فعادوا لضحكهم المرتفع ، ترامى إلي سمعهم صوت سعيد مبروك من الخارج وهو أحد أصدقاء حسن ، فقام مستأذنا وخرج ..
نظر الحاج إلي حمدان
ـــ هاااه !.
قالت الأم:
ـــ أشعر منذ جلست أن هناك شيئا ما لا يريحني .. ماذا حدث ؟.
قال حمدان موجها حديثه لوالده:
ـــ الناس طيبون ولكن قلبي غير مطمئن على مستقبل أختي بهذا البيت .

اعتدلت الأم في جلستها تجاه حمدان وبدت عليها الريبة فتساءلت:
ـــ لم يا بني ؟ ، ماذا رأيت في الناس ، لقد سألنا عنهم جيرانهم ـ مع معرفتنا بهم ـ فأثنوا عليهم بالخير وهكذا هم دائما ، لا يسمع لهم صوت خارج دارهم ، اللهم إلا بعض المناوشات بين الأخوين منذ أيام .
دخلت فريدة زوجة حمدان تحمل صينية عليها أكواب زجاجية فارغة ودورق به عصير أصفر

قالت مبتسمة:
ـــ عصير مانجو .. الله ، أين حسن وعلا ؟
لكن أحدا لم يعرها انتباها ، وواصل حمدان حديثه قائلا:
ـــ وهذا ما أعنيه يا أمي ، هذا البيت به أحقاد دفينة متوارثة ، كالنار ترقد تحت الرماد لا تفتأ تشتعل مع أول نسمة عابرة ، أرأيت يا أبي أخ يسعى في إفساد زواج أخيه مع أهل عروسه ؟.
توقفت فريدة عن صب العصير ونظرت إلي حماتها بدهشة !.
ـــ من قال لك يا بني !.

ـــ يا أبي من أول الأمر وأنا لا أشعر بأية راحة تجاه هذا الأمر والآن تأكد لي إحساسي ، فصابر لن يترك لأخيه شأنا إلا وكدره وعلا بالتبعية ، ونحن لا نريد أن تقطع علاقتنا بهذه الأسرة فما بيننا من أسباب اتصال يحزن على قطعها ، فالعشرة والجيرة القديمة لا يفرط فيها بسهولة ، وعلا أختنا الوحيدة ولن أسمح بأن ينالها أذى .

ساد الوجوم بضع لحظات ، ناولتهم خلاله فريدة أكواب العصير
ـــ والله سمية زوجته ست طيبة وبنت حلال ولا أرى أنها ستكون (سلفة) سيئة.
أخذت الأم من كلام فريدة طاقة للكلام فقالت:
ـــ ربما لم نحسن فهم الناس جيدا ، فهذه أول مرة نجالسهم ، حتى أننا لم نذهب إلي بيتهم بعد ، ولعلها ظنون لا أكثر .
كان الحاج فؤاد لا يقضي أمرا دون الرجوع لابنه حمدان الذي اتخذه أخا أكثر منه ابناً ، ويكثر من مشورته في كل شئونه ، وبطريقة ما انتقلت إليه هذه الهواجس التى انتشرت في سماء نفسه كسحب من القلق على مستقبل ابنته ، ولكنها مجرد (هواجس) لم ترتق بعد إلي شيء يعرقل الزواج ، لكن هذه الصورة أعادت لرأسه من جديد فشل زواج أخته بسبب دسائس البيوت التي آلت إلى طلاقها ، لكنه أمّل أن تسير الأمور على خير.

قال حمدان وقد فرغ المجلس إلا منه ووالده:
ـــ يا أبي ، قد ازدريت علاقاتنا القديمة بهؤلاء ، وإن كنت لا أريد قطعها فلا يصح أن تكون مهر أختي (علاقة جيرة) ، ثم نحن لا نقاطع أحدا وبيتنا مفتوح لكل الناس ، مالا تعرفه عن صابر أنه مشبوه وعلاقته بالجبل وطيدة، وعبد الجليل أحد أصفيائه وغيره ما لا تعلم.
ـــ أنسيت أني شيخ البلد !!.

ـــ فلم وافقت إذن ؟.
ـــ لأن عثمان ولد طيب قنوع ، وأنت لا تدرك معني الطيبة ولا القناعة.
استأذن والده وصعد إلي شقته ، فتخفف من ملابسه وأشعل سيجارة تهدئ من وهج أعصابه الملتهبة ، أحضرت فريدة صينية بلاستيكية بيضاء مزركشة ببعض الورود مختلفة الألوان والأشكال يتوسطها كوب الشاي ومطفأة .
شرد حمدان بذهنه حيث يجمع شعث أفكاره ليستقر على رأي وجيه ..
استوقفته فريدة بصوتها الهادئ فقطعت عليه استرساله قائلة:
ـــ الشاي يا ابو فؤاد .
انتبه إليها وأمسك كوب الشاي في سكون
ـــ لو أن حسن أساء إليك ماذا سيكون رد فعلك .
وضعت يدها على ركبته وقالت باسمة:
ـــ كل شيء يهون لأجلك يا ابو فؤاد .
اعتدل في جلسته وقابل كلامها بملامح أكثر جدية فأردفت قائلة:
ـــ البيوت كلها لا تخلو من مشاكل ، سواء بين الزوجة وزوجها أو أهل زوجها ، ومع الأيام تستقيم الأمور وتقل المشكلات ، لكن ليس من الحكمة أن تخبر المرأة زوجها بكل مشكلاتها في بيتها.
نفث دخانا كثيفا من فمه ثم قال:
ـــ تسكت المرأة على كثير من المشاكل في بيتها حتى يستهان بها.

٤

تجمعت الأسرة في بهو الدار ، وتفتحت كل النوافذ حتي يلطف النسيم جوها الحار ، كانت ابتسامة مصطنعة مرسومة على شفتي عثمان ، يهرب بذهنه المشحون إلي كوب الشاي إذا التقت عيناه بعيني والده ، أما صابر فوجهه كسماء ملبدة بالغيوم توشك أن تمطر حمما ، استغرق خليفة في نومه على إحدى أرائك الدار مجهدا من لعبه مع الأصدقاء الجدد ، أشار صابر لسمية بعينيه الثائرتين أن تحمل الولد إلي فراشه بالطابق الأعلى ، استوقفها الوالد قبل أن تغادر مقعدها قائلا:

ـــ أريدك يا سمية أن تتابعي علا الفترة القادمة وتكوني معها فقد تحتاج إليك، فهي وحيدة مثلك ..

قال صابر معترضا بحدة:

ـــ عندهم ما يكفيهم من النساء ، وزوجتي لن تكون خادمة لأحد

قال الوالد منزعجا

ـــ معاذ الله يا صابر ، خادمة !! ، سمية ابنتي ولا أرضى لها ما تقول

ـــ يكفي عمل البيت والحقل معا

قالها وقد وقف يهم بالانصراف

ـــ اقعد يا بني ، ماذا حدث ، هل رأيت من الناس سوء أزعجك

نظر إلي عثمان نظرة غاضبة ، ثم قال مشيرا بيده لسمية أن تقوم

ـــ تصبح على خير.

حمل خليفة على كتفه الأيمن نائما وتبعته سمية ، تبعهما الوالد ببصر حسير وهو ينكت الأرض بعصاه وتمتم محوقلا. لم يعد فهم هذا الولد أمرا سهلا ،

منذ أيام قليلة كان حريصا كل الحرص على زواج أخيه ، وحثني عليه حتى وضعني بين قدرتي وكلام الناس ، أشعرني بسعادة بالغة يوم رأيته يتكلم بلسان المحب لأخيه ، الراجي لسعادته ، أما ما حدث اليوم فقلب تقديري كله رأسا على عقب ، كلامه وتصرفاته كافية لإفشال زواج أخيه لكن ما السبب !! ، الآن أتوقع أن يرسل إلي شيخ البلد أسفه لاستحالة إتمام الزواج .. يا الله ..

فرك الرجل وجهه بيده وقال:

ـــ أكان بينك وبين أخيك شيء ؟.

ـــ لم يحدث أي شيء بيننا على الإطلاق ولا أدري لماذا تغير بهذا الشكل ، حتى إنه لم يقل لي (مبروك) !.

ـــ تذكر جيدا ، فلربما كان منك تصرف ما أو كلمة أغضبته.

ـــ لا يا أبي لم يحدث ، وإن كان غاضبا فيحق لي أنا الغضب وليس هو ، فقد جالسته منذ عدة أيام وجعلته واسطة بيني وبينك حتى يقنعك بسفري إلي القاهرة ووعدني بذلك.

اتسعت عينا الوالد دهشة ، فقد كان حواره معه غير ما يسمع الآن ، وزاده دهشة هذا الخلاف الناشئ المنعدم الأسباب بينهما ، وبدت عليه الحيرة !.

رجل ناهز السبعين من العمر لا يرجو من الأيام أن تنتهي وعيناه قلقة على مستقبل الأولاد ، كيف يستريح في قبره وقد جرت العادة في جرجاوة أن يترك الآباء أبناءهم أعداء متقطعي الأرحام بسبب الظلم بينهم وقت حياتهم، أو خلافاتهم على الطين بعد مماتهم.

تجربته الشخصية مع أهله التي غصّته طوال عمره من قطيعتهم لا تزال تطارده حتى في آخر أيامه. فالتاريخ لا يعيد نفسه ، ولكن الإنسان يرتكب

نفس الأخطاء فيعوّل على الزمن عذره ويظن أن التاريخ آثم. هذا الولد الذي شهد في سن مبكرة من عمره مشاكله مع أقاربه فقسي قلبه ، لم يكن من الحكمة يومها أن يتركه فريسة المشاعر الغاضبة المتلاطمة ، بل الأجدر حمله على الإحسان لذوي رحمه مهما أساءوا ، ولكن هيهات أن يعيد الزمان كرة أيامه الخالية فتصلح الأخطاء ...

الكذب أصبح سهلا والخداع يسيرا ، أصبح لا يني عن المكر ولا تصده عن جرأته شيبة أبيه ، لماذا حملتني بمعسول الكلام على زواج أخيك وأنت الآن تريد إفشال الزواج ، وإن كنت تكرهه فلم أبقيته ، لم لم تدعه يرحل إلي القاهرة بعيدا عنك ؟ ..

عاد إلي عثمان بعينين ساهمتين يقطر الهم من أشفارهما ، وقال بنبرة راجية ــ ولكني لا أرى فيك فرحة العرسان ، فعروسك امرأة جميلة وبنت حسب ونسب يتمناها كل شباب القرية ، واستئثارك ميزة تضعك فوق الكثير من الشباب.

لكن المرأة في رأيه ليست بالحسب والنسب والجمال ، فكل ذلك شموع تنطفئ إما برياح الدهر أو بانتهاء العمر .. وليس كل باب يصلح له المفتاح الذهبي الكبير ، فقد يكون أعظم الأبواب وأجلّها شأنا لا يفتحه غير مفتاح صغير تزدريه ، ولكنه الأصلح.

ــ لا أظن علا تصلح لفتح ذاك الباب .
قالها عثمان وهو يشير إلي صدره ، فندت عن الوالد نظرة استغاثة وهو يقول:
ــ هل تعني أنك لا تحبها ولا تريدها .

لا أريدها ، بل أريد الرحيل من القرية إلي مجتمع أكثر رحابة وحرية .. أريد أن أهرب من نفسي .

ـــ الرأي ما تقول يا أبي .

تشققت عن شفتيه الجامدة ابتسامة مجهدة لا تنم عن الرضا والقناعة ، ولكنه تعلق بما قال ابنه

ـــ عين العقل يا بني ، وما اخترت لك إلا امرأة طيبة ستحمدني عليها في قبري .

كم أخاف أن تلعنني في قبري ، لكن الفائدة المرجوة أكثر من الضرر المتوقع، فالاتصال بنسب شيخ البلد سيسهل كثيرا من أمور الحياة ، سواء في العلاقات العامة في القرية ، أو في الوحدة الزراعية ، أو التواصل مع الحكومة إن عادت مجددا لغرس أعمدة الكوبري الذي واجهناه من قبل ، أو في مواجهة بلطجة العائلات إذا دعي الأمر إلي حمل السلاح فإما أن نجد يدا تعين على الدفاع وقت الخطر ، أو عينا غاضة عن جهلنا على الغير ولكنك لا تفهم ..

قال بصوت متهدج:

ـــ عثمان !!.

ـــ نعم يا أبي .

سكت برهة وأردف قائلا:

ـــ أريد أن أراك أجمل وأسعد عريس شهدته البلد.

كادت أن تند عنه ابتسامة ساخرة ، لكنه أرغمها على المكث خلف آلامه ، فهز رأسه وسكت.

وقام الوالد مثقلا بالهم ، وألقى نظرة أخيرة على عثمان ثم اتجه إلي غرفته وأغلق بابها ، بعدما تمني له صباحا مليئا بالخير ونوما مريحا ...

فتح النافذة فوق السرير فامتلأت الغرفة بالنسيم اللطيف ، واستلقى على فراشه بعدما خلع ملابسه وأغمض عينيه في هدوء بال ، وابتسامة عريضة. ترددت في أذنه ضحكة أنثوية مفزعة ، لكنه تجاهلها قائلا: سيتم الزواج مهما حدث أيتها المحروقة ، كوني في قبرك معذبة دائما يا كافرة.

ألقي عثمان برأسه على الكرسي وأغمض عينيه وخيم عليه صمت عميق ، لا صوت سوى أزيز الصراصير ونقيق الضفادع وهسيس الأوراق علي الشباك الحديدي ، القرية كلها في سكون تام إلا قلب هذا الشاب الذي ترقد فيه آماله رهينة الأب الذي يرى مصلحة الأسرة من خلاله ، حرب ضروس هي ، تشتعل من حين لآخر لكن أوزارها لا توضع بالنصر ولكن بالصمت والسكوت والسكون والركون ، تراءت الأم لعينيه المغمضتين ، لكن ليس بشحمها ولحمها ، ولكن بإجهادها وهي تعالج سكرات الموت الأخيرة ، ثم وهي مسجاة لا حراك فيها ولا نفس ولا همس ، نظر إليها نفس النظرة البريئة التى عودها أمه منه أيام حياتها ، والتي ما كانت تراها حتى تهرول إليه بأحضانها وقبلاتها ، ثم يطلب ما يشاء منها ، فتصب على عوزه كؤوس الحنان والإجابة .. الآن أنت بلا روح ، جسد خاو على عظامه ، أين أنت الآن .. أين وصلت بك الملائكة ، هل شفتيك لا تزالان بطعمهما القديم أيتها الفاتنة في حنانها وأمومتها فأنا أفتقدك الآن ، هل تذكرين لّما بكيت من صابر وقد لطمني على وجهي وكنتِ بالحقل وشكوت لك ألمي ماذا قلتِ ، ها أنا أناديك بها: يا أمي ، ولن أزيد كما قلتِ.. لكنك لا تحضرين ، فأنت الآن أمامي ولكنك غائبة ، لو شكوت لك مائة عام فلن تتألمي ولن تقطر من عينيك دمعة ، ولو تراقصت مائة أخرى من فرحتي فلن أرى ابتسامة على شفتيك ، أمي .. هل من حقي الآن أن أقول أمي .. هل الأم تموت ؟ وبهذه السهولة وهذا اليسر .. رحلتي عن الدنيا !!.

ظل جامدا لا يتحرك ، كان مدركا في سن العاشرة وقت وفاتها معني الموت، وكان قلبه يعرف كذلك كيف يتذوق الحزن من أمر كؤوسه لكنه تصلد ، وظل مشدوها لا حراك فيه وكأنه هو الميت ، حتى دخل أبوه عليهما وناداه فلم يجب ، فأخذه من يده وخرجا ولم تزل عيناه على أمه ، سلمه يومها إلي خالته وأوصاها به ، كان صابر يومها أشد الناس بكاء ، هل نحن بحاجة للبكاء حتى نثبت للناس أننا محزونون ، وهل القلب لو تملّكه الحزن هل تنفع فيه المواساة ، إن القلب إذا حزن لا ينفك عن حزنه ولو اجتمع أهل الأرض في رجل وقال له اصبر ، ولن تهدأ حرارة هذا الحزن حتى ولو أطلّت بحار الدنيا من عين وذُرفت جميعها دفعة واحدة كدمعة سخينة على خد مكلوم ، ذلك إن كان الحزن على حبيب مفارق ، فما بالك إذا كان هذا الحبيب (أُم) فما بالك إذا كانت هذه الأم (جليلة).

لم يزرف دمعة على هذا الجسد ، حتى وقت العزاء لم تؤثر في قيعان عينيه سيم الحزن المنتشرة في أفنية الوجوه ، ولّما ترك الرجال في البيت الكبير قبل بيعه ورجع إلي داره الحالية ووجد النساء في الأردية السوداء وصراخهن الذي يزلزل جبال الفرح والهناء في الروح المترفة ، وهذا المد والجزر للعويل المتواصل لم تتحرك أمواجه في عينيه ، ولم تحاول سحابته أن تعتصر فتذرف دمعة ، فاتهموه بالجمود والعقوق ، لكن والده كان أحكم حاكميهم إذ ظن أن الولد قد يكون أصيب بمرض نفسي من الصدمة ، فدار به على أطباء القاهرة ووعدوه أن يشفى من صدمته قريبا .
ولكن أيدع الأيام تفعل ما تشاء وتطيب نفسه بما حكم القضاء ، تنبثق من تربيته القديمة حكم ومواعظ تثبته وتحثه على الرضا ، فالإيمان بالقضاء والقدر من شروط الإيمان ، لا تدع الشيطان يلعب بإيمانك ، ويخرجك إلى دائرة الساخطين ، ولكن من قضى وحكم ؟ الله أم أبي ؟.

ليس هناك أرحب من حث المؤمنين في دينهم على رفض الضرر ومحاولة عيش الحياة بطريقة أفضل ، إنه في آخر مراحل عمره ، علام يأس على الدنيا ويعكر صفو شبابي بأهوائه وطموحاته ، أيظن أنه بعد موته سيأتي لزيارتنا ويطمئن على أرضه ومزارعه ومواشيه ثم يرجع للدار الآخرة ، ما هذا العبث ، كيف أتركك تعبث بي وبمستقبلي ، ربما يكون تعليمي ليس بالقضية التى يؤبه لها ، ويراها البعض في هذا البيت أنها ليست ذات قيمة ، ولكني أراها أم مستقبلي ، أنت الآن في آخر محطات عمرك ...

أتتركه يرحل عن الدنيا وهو حزين أن عقه ابنه ولم يف بأمنيته ، تزوجها ولئن مات ورأيت فيها ما يسوءك طلقها بالثلاثين ، ولا تدع الفرصة لصابر أن يضع الشقاق بينك وبين هذا الكهل .
ليس من الصعب تحقيق الأمنيات ولكن الأصعب هو حسن التخطيط لها وقوة النفس على الصبر على صعوبات الطريق ، مهما كلفت هذه الطريق إذ الظفر في نهايته ، ومع أول نظرة لانتصارك تنسى لأواء الطريق ومشقته.
لا تسكت بعد الآن ، جرب نفسك كواحد من الناس ومارس فعالهم وتخلّق بأخلاقهم ، فلربما كنت على خطأ بحسن أخلاقك ، لا تدع أمنيتك تذوب في أمنيات غيرك ، فالكؤوس متعددة ، ولن تُفلح إذا أفرغت كأسك قبل السكر منها حتى الثمالة.

كثير من الأفكار والتصورات تدور في فلك النفس ، تتصارع على تحويل الإنسان واجتذابه ، لكن تظل هذه الأمواج المتلاطمة ــ والتي تعبر بصدق عن كنْه النفس البشرية ــ رهينة شاطئي النفس والواقع ، ولن تظفر بنفسك إلا إذا حطّمَت أمواجك كل تلك القيود ، وأرسل فيضانك يهز الوجود معلنا عن نفسك أنك موجود.
انتبه عثمان على صوت على وهو يصرخ في أذنه

ـــ عثماااااااااان !.
قام من غفوته القصيرة مبتسما في وجه أخيه الأصغر
ـــ مالك يا علي ، ما الذي أيقظك في هذا الوقت ، أتريد شيئا ؟.
ـــ أي وقت ! الساعة لم تبلغ العاشرة ، وقد ضقت بغرفتي وأريد أن أخرج ، الجو بالخارج جميل والنسيم بارد
ربت على كتفه ، ومرر يده على شعره في حنو تصاحبه ابتسامة ، وخرجا معا من البيت .

٥

كانت الليلة ثقيلة كالجبال ، تلبدت سماؤها بالغيوم وغارت نجومها وطمس قمرها ، فاستيقظ من نومه ثقيل الرأس ، يجاهد جفنيه أن ينفرجا حتى يبصر طريقه إلي بهو الدار ، وكأنه ثمل من خمر شُقت لصداعها رأسه ، فسار مترنحا يتحسس الدرابزين بيد ، وبالأخرى يفرك عينيه .
دلف إلي الحمام فغسل وجهه وصفف شعره بيده كحركة اعتيادية ، وخرج إلي الركن الخلفي أسفل النافذة الحديدية ، وتمدد عليها وهو يفرك عينيه ..

انتبه لطرقات قدم على الدرج ، فالتفت قائلا:
ــ كم الساعة الآن ؟.
أجابت سمية وهي تحمل صينية الطعام فوق رأسها:
ــ بقينا قرب العصر.
قالتها وهي منصرفة في اتجاه الحقل ، أتبعها عثمان بعينين نافذتين في صينية الطعام حتى توارت.

إنها صينية الطعام لمن بالحقل وفقا للعادة اليومية ، يوما ما ــ قريبا ــ ستكون مكان صابر بالحقل وستكون علا مكان سمية تجهز الطعام وتحمله إلي الرجال هناك ، حياة رتيبة لا روح فيها ، لا أظن أنني سأحتمل ، كانت أيام المدرسة أفضل الأوقات ليتها استمرت ، ولكن الحلم الموءود لا زال يصرخ، لا زال به رمق ينبض بالحياة ، لن أستطيع العمل بنصيحة حمّاد ، فلا أراني أطيق أن أحيا مريضا بالأمل .
نهض إلي غرفته وأبدل ملابسه وخرج صوب الحقل ، كانت الطريق مليئة بالمارة ما بين مترجل ، وراكب على حماره ، وسائق لأغنامه ، انهالت عليه

التسليمات والتبريكات والأمنيات بالخير .. انتشر الخبر في البلد !! ولم لا ووالده على قارعة الطريق في حقله مضياف لحد لا يطاق.
خطواته السريعة ووجهه المنصوب تلقاء الأرض ـ حتى وكأنه لا يري أحدا بعرض الطريق ـ يعني الكثير.

كانت الأرض فسيحة ممتدة على مرمى البصر تزيد عن ستة أفدنة ، تقع في أهم وأثمن مناطق القرية حيث إحدى جوانبها يمتد متوازيا مع الطريق الرئيسة للسيارات أعلي القرية ، ومقسّمة إلي جزأين متوازيين ، أحدهما يعج بأشجار الفاكهة ، والآخر للمحاصيل الموسمية. يعمل مع والده وأخيه أربعة من الفلاحين بأجرة أسبوعية ، كانت سمية بجوار العريش تبسط الفرش وتهيئ جلسة الطعام ، أما صابر فمنهمك كعادته بين الفلاحين. وقف بين اثنين منهم ــ ممسكا فأسه بيده اليسرىــ ويشير باليمني نحو الجدول الصغير الذي يفصل الأرض إلي نصفين ويتشعب منه أفرع صغيره تصل إلي مربعات مزروعة بألوان مختلفة من المحاصيل الصيفية ، كان الوالد في الجهة الأخرى للعريش يجلس بجلباب الحقل المتسخ مع الحاج فؤاد تحت ظل شجرة التوت تتعالى ضحكاتهما السعيدة ، رآه الوالد وهو مقبل عليه فامتعض وجهه ، فملامحه الجامدة لا تنبئ بخير ، فسدد له النظر كأنما يقول له انتبه لما أنت مقدم عليه ولما ستقول فهذا شيخ البلد نسيبنا الجديد.

داراهما بابتسامة مصطنعة ومد يده مسلما ، فتهلل وجه شيخ البلد برؤيته، وبدأ بالحديث فسأل عن علا وأمها وأخواتها ، ثم عرج بحديثه عن الأرض وكيف يسير العمل بها فطمأنه والده ، وتردد نظره بين الاثنين برهة ثم استأذن والده لكلمة على انفراد ، فتقدما بضع خطوات واختلى بوالده ــ أرجو أن يكون حضورك اليوم لخير (ناظرا إلي السماء) ، اللهم اخلف ظني .

نظر باتجاه شيخ البلد الذي يترامى إليهما ضحكه مع صابر وقال بحزم
ـــ أخبر شيخ البلد أنني لن أتزوج ابنته .
بهت الرجل ، وشده بصره وكأنه خر من السماء ، وبعد فترة من الصمت اللا إرادي قال:
ـــ ماذا قلت ؟
ـــ قلت ما سمعت وأعني كل حرف فيه ولن أتراجع عن قراري.
ناداه شيخ البلد من أمام العريش حتى يأذن له بالانصراف لصلاة العصر بالمسجد ، فاستبقاه قليلا ، وعاد إلي عثمان بوجه حديدي يتطاير شرره ، هم بالكلام لكن سمية بادرتهما قائلة:
ـــ الأكل جاهز (يابا الحاج) ، والفلاحون ينتظرونك .
ـــ قولي لهم يأكلوا .

رجعت إليهم سمية ، وتوجه إليه بحديثه مرة أخرى قائلا في حدة:
ـــ أما كان في البيت متسع لتلك السخافات الصبيانية
ـــ ليست سخافات يا أبي ، ولكنه مستقبلي تريد أن تشكله بيدك وعلى مزاجك ، حاولت أن أحمل نفسي عليه فلم أستطع.
ـــ كلمة واحدة لن أقول غيرها ، إما أن ترجع إلي البيت وتجهز حقيبتك وتصحبها إلي السوق لتشتري ملابسك الجديدة ليوم العرس ، أو تحزم فيها ملابسك وترحل عن الدار وجرجاوة كلها ، لكم ذاق قلبي من قبل مرارة الحزن على فقد الولد ، فلن يفاجأ قلبي بفقدك.

وتركه ومضي إلي الرجال باسما ، فأفسحوا له مكانا بينهم فنهاهم وأقسم عليهم ، وتوجه إلي شيخ البلد يعزم عليه بالغداء لكنه تعلل بقرب إقامة الصلاة ، وانصرف ..

وظل عثمان واقفا كحجر لا أثر للحياة فيه ، ولما لم يجد فائدة تحرك تجاه البيت بخطوات وئيدة وقدمين مثقلتين ، رمق شيخ البلد خلال الطريق يسير على مقربة منه ، ففكر في مصارحته لكنه لم يجرؤ وخشي العواقب ، لكن القضية تشعبت برأسه أكثر فلم تعد في نطاقها القديم.
أحد خيارين لا ثالث لهما كما توقع سلفا ، إما الخضوع وإما الهجرة التى لا فتح بعدها كما يظن !

*****

انتشر الفلاحون من جديد في مساحة واحدة من الأرض لا تزيد على فدان، يزاولون أعمالا مختلفة ما بين معالجة جدول الماء الجديد الذي يشقونه في الأرض ، وتنظيف أوراق النبات من الأوراق الفاسدة ، ووقف أحدهم مع موظف الرش يرشده إلي المناطق المصابة ، بينما جلس صابر ووالده أسفل العريش يحتسيان الشاي.
فرغ صابر من وضع الفحم على حجر النرجيلة ، فتنفسها والده وأشار له بيده ألا يضع مزيدا من الفحم.
ــ قابلت الأستاذ عبد الحفيظ بالمسجد في صلاة العصر ، وسألني عنك
ــ وماذا يريد الأستاذ زفت .. لا يشبع هذا الرجل من الرشوة ولا تمتلئ له بطن ، هل أعطيته شيئا ؟.
ــ أستغفر الله العظيم ، قلت قابلته بالمسجد .
أستغفر الله العظيم لا يجوز إعطاء الرشوة بالمسجد !.
ــ وماذا قال ؟.
ــ يضغط علينا بسبب المشكلة الأخيرة يوم وقفنا للحكومة ، فكما تعلم أن باستطاعته إيقاف حصة الكيماوي الخاصة بأرضنا.
ــ ابن الكلب !.

ـــ وقال صراحة أن باستطاعته إسقاطنا من الكشوف ، وحذف حيازتنا الزراعية ، ثم بيع حصتنا في السوق السوداء ـــ كما يفعل دائما ـــ بأسعار مضاعفة عن أسعار الوزارة ، لكن ..

التفت إليه وقد عكف حاجبيه متسائلا:
ـــ لكن ماذا ؟.
ـــ كان هناك شيخ البلد ، رآنا فحضر مسرعا إلينا ونظر لعبد الحفيظ بطريقة حملته على تلطيف الكلام ، حتى قال أن أمر عليه بالوحدة لآخذ الكيماوي الذي أريد بعد انتهاء فترة العمل الرسمية.

قالها صابر بمشقة وهو يثني على شيخ البلد ، لكن ليس من الحق بد إذا كان والده سيعرف لا محالة بمساعدة الرجل لهم.
ضاق صدر الوالد بما سمع بعثمان الذي لا يريد أن يلتحم بهذه العائلة التي ستيسر عليهم العديد من المشقات فتمتم يلعنه ، فلاحظ صابر تبرمه وتوقع سببه فتساءل:

ـــ لم حضر عثمان فجأة وذهب فجأة ؟.
ـــ هذا الحيوان لا يريد أن يتزوج وجاءني لفسخ اتفاقي مع شيخ البلد
ندت عن صابر ابتسامة حاول إجهاضها لكنه لم يستطع ، فحول وجهه للجهة الأخرى حتى تهدأ ، ثم التفت إلى والده قائلا بثقة:
ـــ هذا ما كنت أخشاه ، لابد من قرار حاسم ، فلسنا أسرة صغيرة حتى تلوكها الألسنة في القرية بسبب طيش الصغير ، أتمم الزيجة إلي نهايتها ولا تلتفت إلي عقله العفن.
جحظت عينا الرجل لدهشته وقال:
ـــ هذا ما نويته بالفعل .. وضغطت عليه وهددته بالطرد إن لم ينصع لما أقول له .

طرده ! يالها من فرصة غير متوقعة
ـــ لا يا أبي لا يصل الأمر إلي هذه الدرجة ...
قاطعه الوالد بانفعال
ـــ أنت حينما اخترت لك زوجك ناقشتني ؟
لو استطعت لفعلت
ـــ يا والدي أنا ولد مطيع ورهن إصبعك إن أمرتني بالانتحار أنا وزوجي وولدي ما ترددت .
قالها وهو يحني رأسه للأرض ويضع يده على صدره
ـــ إذن هو الآخر ، إما يطيعني أو يرحل.
ـــ أبي نسيت أذكرك بموعد المحام اليوم حتى تستكمل إجراءات عمل التوكيل لي .
هز رأسه وشرد بذهنه بعيدا ..
يلاحقه الماضي ، يضغط على أواصر ذهنه ، يعتصر عقله ، يري أنه يمسك الدفة بحكمة خبير ومهارة حاذق ، لكن الأيام مع تواليها تثبت أشياء أخري غير ما تمنى ، وتبوء خططه إلى نهايات مفاجئة لا يرغبها.
أين سعدية الآن !!.
بين التراب بعدما التهمها الدود ومضغ لحمها الشهي اللدن ، أسنانها البيضاء المصفوفة في نظام هندسي بديع رائع ، المتلألئة في فمها كنجوم السماء دون شوب أو انتقاص ، تناثرت أخيرا بين روث الهوام في باطن الأرض ، هذا البناء الأنثوي الخلاب الذي افتتن به رجال جرجاوة حتى صادقني وقربني أكابرها طمعا فيها ، وتاجرت بما أولاها الخالق من نعمة الجسد والحسن ..
ثم حدث ما تجهد عقلك على نسيانه ، لكن ترى هل تنسى ؟
هل تستطيع ؟.

النسيان أجلّ النعم التى تمنح لكل ذي سريرة نقية ، لأن نقاء السرائر ينفي خبث الجهل والإساءة وتحتفظ بعده بكل خير في ثنايا الذاكرة ..
أما أنت أيها الشيخ الهرم المتهالك ، فمن أين لك بهذا النقاء الذي حرمه الشيطان بعدما أنعم عليه به ، واغتر بعقله وفكره ووازن بين مادتين فكانت عاقبته الطرد والتشرد ..

لم ترحلي عني طيلة ما انفرط من أيامي وما انقضى من سنيني ، كنت أراك على وسادتي تنظرين إلي نفس النظرة التى خذلتك فيها ، وواجهت ضميري بكل صلف وغرور لأنني ولي أمرك بعد وفاة والدنا ، فبعتك بما رضيت ، ومنعتك ميراثك حتى رضيت ، ولكني لا أعلم لهذا العذاب نهاية، أيا رب أما رضيت !!
أبحر في عالم الذاكرة إلى بعيد ، حتى رسا على مرفأ والده ..
هذا فراش الموت ، الرقدة الأخيرة في عالم الشهود ، سينتقل حتما هذه الليلة إلى المجهول ..
رقد على سريره الذي لم يفارقه منذ خمس سنوات يعاني من السرطان الذي ينخر في جسده ، يحاول الهرب منه بالعلاج واستشارات الأطباء والتردد على القاهرة ، فمن أطبائها الكبار إلي أوليائها الأطهار.
بيعت من الأرض سبعة أفدنة ، أنفقت كلها على علاجه لكنها لم تأت بنتيجة ، سوى أنها تثبت حالة المرض وتطيل وقت شقائه وألمه ، وعملية البيع مفتوحة ، تقول هل من مزيد ؟
كانت الليلة هي ليلة الثلاثاء ، تجلي فيها القمر كئيبا ، زاحمته السحب الكثيفة في السماء فظهر حينا وتوارى أحيانا ، وكان خليفة قبلها بأربعة ليال بالقاهرة يقضي وقتا منفلتا من الرقابة الأبوية والقروية مع بعض أصدقاءه الذين انقرضوا مع الوقت إما بالموت الطبيعي ، أو في المصانع وبربخ المياه أو بمغادرة القرية إلى قرى أخري ..

اتصلت به سعدية على هاتف الشقة التى ينزل بها وأخبرته الخبر وطالبته بإحضار طبيب من القاهرة فحضر على الفور بمفرده .. وصل ليلا يرفل في جلبابه الفضفاض المنمق ، يتلفع بشال بني جميل ، يترقرق الشباب والفتوة على وجنتيه ، وترتسم على شفتيه ابتسامة متراقصة يدفعها إلي الخمود قسرا ، بينما قلبه أقيمت فيه الأفراح وعلقت علي جدرانه الزينات وحضر المغنون والراقصات منذ الصباح .. فلعله اليوم المعهود.

انهمكت سعدية في الاتصال بالأهل والأقارب ، بعدما تبخر الأمل من قلبها وحدثها حديثه المؤسف أن هذه الليلة هي نهاية المطاف ووقت الوداع وساعة الانقطاع ، ومن حق الأهل والأحباب توديعه وإلقاء نظرة الوداع عليه ، فإن العيون قد لا تتقابل من جديد ..

امتلأ البيت سريعا لتقارب الجميع في القرية ولصغرها ، وغارت العيون في دمعها السيّال ، واجتمعت النسوة حول سعدية يهدئنها بعيون تصرخ بالألم وقلوب تتفجر بالحزن لما للرجل عليهم من أيادي وخصال حسنة ، بينما الرجال في الحجرة على حواف السرير وأمامه يحدثونه ويشدون من عزمه ولم تخل عين من دمع وهمهمة من أسف ..
ند عن أحدهم حديثا قصيرا لمن بجواره:
ــ أهكذا يموت الرجل وحيدا بلا جذع منه بجواره ، فيلتقط أنفاسه الأخيرة دون أن يتلقف أبناؤه نسماتها ؟.
فرد عليه كاظما صوته ، ناهيا إياه عن مواصلة حديثه
ــ شششش ، لسنا بمقام يسمح بهذا الكلام ، وكما تعرف فأحدهما مفقود في الغربة والثاني على وصول .

كانت الدار مفتّحة الأبواب الداخلية والخارجية ، ينبعث منها الحزن والألم ، دلف إلي الدار فتسمرت قدماه عند الأوشحة السوداء التى صنعت ليلا آخرا داخل البيت فسكتن جميعا .

هرولت إليه سعدية وعيناها كجمرتين من أصل الجحيم
ـــ أين الطبيب ؟.
وتلفتت خلفه هنيهة ورددت قولها البائس
ـــ أين الطبيب ، ألم تحضره معك
لكنه قال بامتعاض شديد:
ـــ هل مازال حي ؟

لم تستطع أن تجيب سؤاله ، هزها كلامه بعنف ، تكسرت الكلمات على شفتيها قبل أن تقول: هل تتمني موته ..
لكنها لم تستطع ، انعقد لسانها وسكتت. صرخ في جمع النساء ونهاهن عن البكاء ، سمع الرجال صرخته التى اعتبروها إهانة لهم ولنسائهم في بيته ، فانصرفوا مع زوجاتهم متأففين ، لكنهم سيغفرون له عما قريب لجلل ما هو فيه ..

خلا البيت إلا منهما ، ترنحت سعدية حتى وصلت إلى حافة السرير بجوار أبيها وهي ترسل الدمع مدرارا ، فقال الوالد جاهدا:
ـــ أنا بخير لا تبكي يا حبيبتي
وقف خليفة على باب الغرفة متبرما ، أشاحت ببصرها نحوه وردته إلى والدها وهي تربت على يده بخيبة وتعاسة.
تصنّع الهم في خطواته الوئيدة نحو الطريح وتمنى له الشفاء بكلمات كاذبة ، وتقدم بالاعتذار لمغادرته جرجاوة وهو في مثل تلك الظروف لكنه كان مرغما ، فأشار له بيده موفرا كلماته حتى لا تضيع هباء ليجلس بجواره ..

لا تستطيع الكلام كثيرا أيها الرجل الذي ملئت جرجاوة بسيرته ، توفر الكلام !! هه ، تكلم آخر كلماتك إذن يا ذا النيف والثمانين ، تكلم فماذا تريد من الدنيا أكثر من ذلك ؟ بعدما طعمت خبزها ونعمت ببشرها طيلة شبابك وهرمك ، أتود أن ننفق عليك ما تبقي من الأرض لتنعم أنت بالصحة ، وأشقي أنا بعدك بالفقر ؟ هه ، تكلم ، الفظ ما تبقي بجوفك وارحل ..

ــ اسمع يا خليفة ، إنني الآن على مشارف الآخرة ، أرى قبابها عن قريب ، ولست أدري كيف أواجه ربي بمثل هذه الذنوب والعيوب ...

شرد بذهنه بعيدا عن نطاق هذه الغرفة الضيقة ، حيث يتأمل بلطف داخلي الوقت الذي قد حان ، والذي سيولد فيه من جديد كوريث ، وصاحب كلمة وأملاك بمفرده دون غيره ، وترك والده يرتل علي أذن لاهية وصايا تتكسر قبل أن تصل إلي قلبه ..

كانت كلماته الأخيرة لقلبها كضربات الرعد الشديدة فاعتصرت عينيها عن آخرهما حتى كادتا تنضبان من ماء يذرف ، فعلا صياحها ونشيجها حتي أيقظت الحالم فانتبه إلي والده قائلا:

ــ أطال الله في عمرك يا والدي ، ستشفي بعون الله وستعود لحبيك حتي لو بعنا بهائمنا وآخر ذرة تراب من أرضنا وأجسادنا بعدها.

ــ لا وقت لمثل هذا الكلام ، لا تضيع الوقت ، الصندوق الصغير بالغرفة العليا في خزانة الملابس ، به حجج الأرض والبيت وما ملكنا ، هي كلها لكما الآن ، أنت وأخيك رمضان فقط ، لا تضع في يد سعدية قرشا واحدا تذهب به إلي غيرنا ، ويأكل من تعب عمرنا من ليس منا ، فقط جهزها يوم عرسها بما يتناسب مع مثل مكانة بيتنا ، وابحث عن أخيك رمضان في كل

مكان حتى تجده ، وكونا معا على الزمان تسلما من شروره وخباياه المؤسفة ، قل له: أبوك يقول لك سامحني.
لم ترع سمعها لحرمانها من ميراثها واختصاص أخويها بما ترك ، لا تعنيها الحياة ، فكل الحياة بدونه لا شيء ، هو كل ما بقي من الزمان لها ، ولا يدرك قلبها الصغير حبيبا غيره بعد فقد رمضان ، وجحود خليفة ونكرانه .
تعتبره أبا وجدا فهي بنت السابعة عشر عاما ، الذي تزوج بأمها على كبر وأرغمه خليفة بشتي السبل على تطليقها بعد ولادتها خشية أن تنجب ولدا يكون شريكا في الملك.

ومرت برهة سكت فيها الرجل شخص خلالها بصره ، ولفظ آخر أنفاسه وهو يقول:
ــ احفظ وصيتي.
ثم فاضت روحه ، وعلت وجهه مسحة ظلامية غير معتادة لم يروها عليه في حزن أو غضب ..
ارتمت عليه سعدية صارخة باكية ، فرفعها عنه قسرا وغطى وجهه بإحدى يديه وهو يجاهد أخته في إخراجها من الغرفة ، وحضر على الفور بعض الجيران مع انطلاق الصوت يتقدمهن النساء بنياحهن وبكائهن ، وتأخر الرجال قليلا حتى ذابت سعدية بين النساء واستتر بهن جسدها العاري إثر تمزيقها ثوبها في غمرة الصدمة الأولي ، وتقدم الرجال نحوه يعزونه ، فتظاهر بالحزن العميق ، فشدوا على يديه وأجلسوه ، وتتابعوا على الرجل بالداخل يلقون عليه نظرة الوداع.
حتي إذا فرغوا دخل عليه خليفة بمفرده وأغلق الغرفة ، وأخرج ورقة وختّامة من جيبه كان يعدهما لهذه اللحظة منذ مرضه ورقدته ، فأمسك بإبهام أبيه ووضعه في الختامة ثم وضع إبهامه على الورقة ، وأطبق الختامة

ووضعها في جيبه ، ورفع الورقة تلقاء عينيه ونظر إليها وعلى شفتيه ابتسامة يانعة أشرقت لها الغرفة ، كانت عقد بيع لكل ما يملك الرجل لنفسه.

أمسكت بمجامع ثوبه وصرخت في وجهه بصوت مخيف كالرعد ، ووجه غضوب محترق حانق ..
قال وهو يدفعها بيدين واهنتين وصوت مجهد:
ـــ دعيني وشأني ارجعي إلى التراب ، فأنا لازلت حيا
ـــ كلا يا خليفة لن ادعك تهنأ بيوم من أيامك حتى تغوص في التراب ثم إلى الجحيم ، حينما يتركونك وحيدا بلا زاد
ـــ دعيني وارحلي .. ارفعي يدك وأديري وجهك عني

لبث صابر بضع ثوان حتى أيقظه من غفوته التى استمرت سويعات تركه نائما ريثما ينهي أعمال الحقل ، أتي إليه صوته بعيدا باهتا ، حتى نفذ إلي مسامعه فأيقظه مذعورا تدور حدقتاه كقطعة النار الملتهبة ، ازدرد ريقه بصعوبة واعتدل في جلسته ونظر شذرا لوجه صابر وهو يمسح عنقه بيده ..
ناوله صابر كوب الماء
ـــ ماذا رأيت في غفوتك حتى فزعت كل هذا الفزع يا والدي
تابع نهلته من الكوب حتى فاض الماء عن فمه وغمر صدره وثيابه
ـــ مهلا يا والدي الماء ينسكب
ـــ أذهب الرجال ؟
ـــ نعم .. قم لنذهب فقد انحسر النهار وأوشكت الشمس علي المغيب.

أخذ بيده فأقامه ، ثم استنفر البهائم وهو يقول:
ـــ لطالما حذرتك من النوم بعد العصر .

٦

أغلق الشباك المطل على الفناء عدا ضلفة واحدة تسمح لضوء النهار الأصفر أن ينسحب بهدوء مفسحا مكانه لظلام الليل الدامس المعهود ، وتعالت أصوات الليل من الحقول كنذير بين يديه ..
جلس على الكنبة مقابلا السرير ينظر إلي حقيبة مفتوحة ، تناثرت حولها ملابس وأوراق وبعض الكتب ، لكن همّته لم ترتق بعد إلي وضعها في الحقيبة والمضي فيما عزم عليه في طريقه ، هذه ليلة فارقة فاصلة في تاريخك أيها الرجل ، عليك أن تقرر ما يجب وما لا يجب ، عليك أن تكون "أنت" ليس أقل من ذلك ولا أكثر ، هذا هو الموضوع برمته ببساطة .

لكن العواقب وخيمة ليس من السهل اقتلاع الجذور وتدمير الماضي والبحث عن حاضر جديد في مكان غريب مجهول .. إلي أين أذهب ؟ ..
التاريخ لا يكتب مرتين ، ولكن تستدعي حوادثه ووقائعه بتكرار نفس الأسباب ، والذهاب إلى المجهول بحثا عن "أنت" أفضل من المكث في وداعة بمرافقة "غيرك" المحسوب على نفسك أنه أنت.
لكن لا زالت حكاية عمّه رمضان تراوده في مثل هذه اللحظات الحالكة المتكررة.
ولكن .. قيلت الكلمة التي كنت تتمناها وتخشاها معا وقت فورة النفس بداخلك ، الكلمة التي انتظرتها لتلقي بها اللائمة على غيرك فيما ستفعل من فعال "جبارة" إرضاء لنفسك وما تريد ، والتي ستحفظ لك عودة آمنة إذا فشلت هناك كما فشلت هنا .
الكلمة التى طال انتظارها ألقيت كورقة أخيرة على منضدة تباع بالمزاد العلني ؛ فاحزم حقائبك ، ليس بعد اليوم شيء تخافه أو تحزن عليها ، هنا

الجميع لا يرضى عن الجميع ، المكان يضيق يوما بعد يوم ، فأوج الحكمة أن تترك مكانا بؤت فيه بالفشل إلي مكان به مظنّة النجاح وليس أكثر على النفس حبا من ملاقاة الأهوال في الترحال ..
وإذا تمثل لك اليأس يوما ، وأطل على فعالك بوجهه القبيح فأرغمه على النظر إلي المرآة ، فقد يموت من قبح منظره ، أو بيأسه منك.

لأول مرة فاتح حمّاد في أمره هذا ، قال له: أود الرحيل إلي القاهرة لأكون مهندسا ثم وزيرا للصناعة ، كانت الحماسة جارفة بداخله ، لكنه صاغ أمنيته بأسلوب ضعيف حتى لا يسخر من طموحه ، فكان من قوله: إذا توليت منصب وزير الصناعة فسأحول هذه البلد إلي مصنع كبير ، فبلد لا تجيد غير صناعة الشيبسي واللبان هي دولة سهلة المضغ و (القرمشة) .

لكنّ حماد تجاهل حماسته المترددة ، وترنم بكلمات لإحدى أغاني عبده الحامولي قائلا:

"أهل السماح الملاح دول فين أراضيهم
أشكي لهم ناس لم تعرف أراضيهم ..."

استاء عثمان من صديقه وتغير وجهه فما كان هكذا الظن به ، فأردف حماد لمّا رأي تغيّره:
ــ الله يرحم عبده الحامولي ، كان من أكابر رواد الموسيقي العربية ..
ــ لعنة الله عليك وعلى الأغاني يا جحش ، ما كان هذا ما وددت سماعه منك.
فضحك ضحكة عالية ثم قال بهدوء:
ــ أتعرف يا عثمان أن عبده الحامولي لمّا بدأت موهبته في الغناء وتكوّنت في نفسه أمنية أن يكون مطربا وشاديا حاربه والده أشد الحروب ؛ ليحول بينه

وبين ما يريد ؟ ، فهرب من البيت وعمل في مقهى مطربا ، لكن صاحب المقهي لم يحسن معاملته ، فتحول عنه إلي منافسه فعمل معه في مقهاه فأساء معاملته كذلك ، لكنه لم ييأس وجاهد في سبيل طموحه فكوّن تخته الخاص حتى ذاع صيته ، ووصل في نهاية الطريق ــ بعد كل متاعب هذه الطريق ــ إلى أن يكون المطرب الخاص للخديو إسماعيل.

أشعلت كلمات حماد بركانا في نفسه وقتها ، وقام متجها إلي البيت محدثا نفسه: سأمضي إلى مكان جديد وبيئة جديدة قد تكون مجهولة ، لكني سأصطحب نفسي (أنا) خلالها ، وسننعم معا بما سنلاقي من شدائد ومحن ، سأذهب إلي القاهرة وأبحث عن عمل وما أكثره ، سألتحق بمعهد السنتين ثم الجامعة ثم التخرج ثم الوظيفة بالحكومة أو بالشركات الخاصة ، ثم وزيرا .. يا لها من ضربة قاسية لكما أيها الطينيان اللدودان عند عودتي أقود سيارتي في ملابسي الفارهة ويزينني وضعي الإجتماعي الجديد ، وحرس الوزير الخاص ..
قام إلي حقيبته ورتب ملابسه بها ، ورصّ الكتب والأوراق ، وأبدل ملابسه فارتدى قميصا وبنطالا وعزم على الرحيل إلي القاهرة ..

خرج مندفعا من غرفته تاركا الحقيبة على الأرض على إثر صراخ وعويل سمية التي تنعي والده ، ونزل الدرج بسرعة حتى كاد أن ينكفئ على وجهه، رأى الوالد في حالة إغماء ، يتوسط صابر وعبد الجليل أحد جيران الحقل وأحد أقطاب الجبل ، وخلفهم بعض الرجال والنساء من الجيران ، أرسل صابر أحدهم ليحضر الطبيب فأتي على فوره .
عرف فيما بعد أن الرجل قد تململ في مشيته فجأة وسقط مغشيا عليه ، حيث كان يسير بجوار صابر ذاهلا شاردا عمن حوله ، حتى صابر الذي حدثه كثيرا في أمور مختلفة لم يكن يجيب عليه سوى بإشارات بيده لا يفهم لها معني.
اقترب منهم قلقا مرتبكا وهو يتساءل عما حدث وما أصابه ، لكن أحدا لم يجبه ، سوى نظرات قاتلة من عيني صابر تحدق في عينيه وفي قميصه وبنطاله، ثم تجاهله دونما كلمة تفسر تلك العدوانية الصامتة .. دلف به إلى غرفته وأرقده على سريره وفتح شباك الغرفة الكبير وقام بتشغيل المروحة ، أشار الطبيب للجميع بمغادرة الغرفة ، فتتابع الرجال خروجا مع دعوات خافتة بالشفاء العاجل ، إلا أن عثمان وصابرا وسمية ظلوا متحجرين في أماكنهم يلحظون الدكتور الذي جلس بجوار الرجل.
نظر صابر إلي سمية الذي تعلق صغيرها بطرف ثوبها يبكي وينتحب أن تنصرف فحملته وخرجت ، ثم توجه بكلام رتيب إلي عثمان قائلا:

ـــ ألم يقل الطبيب أن تخلي الغرفة حتى يتسنّى له الكشف على أبي.
ارتاع عثمان لما سمع فبرقت عيناه وأرعدت ، وكأنها فاجعة ألمّت به على حين غفلة منه ، كذلك أرعى الطبيب سمعه في صمت باستنكار شديد لما قال، فهو لا يجهل هذا البيت ولا يجهل أنهما أخوان ..

أشار له صامتا بوجهه تجاه الباب فخرج آسفا ، وبالخارج تحلق الرجال حوله يسألونه عما قال الطبيب ، لكنه اكتفي بأن يخبرهم أن الطبيب لم يفرغ منه بعد.
لاحظ عليه الحضور حيرة وحزنا تختلف عن أن تكون على عزيز مصاب ، وظلت تتصارع بداخله الأفكار والمشاعر ..
خرج صابر مسرعا من الغرفة بيده (روشتة) فنظر إلي عثمان نظرة عابرة ساخطة ثم توجه لعبد الجليل وطلب منه أن يحضر تلك الأدوية على الفور!
كاد أن ينفجر ، لكن مهلا فحضور الرجال يمنع كثيرا من الشر ، لكنه يضيع كثيرا من الحقوق أيضا .
لم يستغرق عبد الجليل أكثر من عشر دقائق على رجوعه من الصيدلية ـ لقربها ـ حاملا كيسا بلاستيكيا به أدوية ، فدخل مسرعا إلي الغرفة لا يلوي على أحد حتى عثمان ، ويسير بخطى سريعة وكأنه والده هو ..

لكنني لن أسمح بأن تلغي وجودي يا ابن الكلب !.
دلف إلي الغرفة يستحثه الغضب والتحدي أكثر من الحزن والقلق على والده حتى وقف بجوار الطبيب الذي يرتب حقيبته إيذانا بالانصراف بعد إنهاء مهمته ، فسأله عن صحة والده فطمأنه أنه بخير ، وأن ذلك إرهاق بسبب العمل وأن سنّه لا تستوعب كثيراً من الأعمال التى يقوم بها ، ثم كتب له بعض الفيتامينات المقوية حتى تتحسن صحته.
تناول الروشته قبل أن تصل إليها يد صابر واصطحب الطبيب إلى الخارج وهو يشكره.
ثم توجه بحديثه للجلوس شاكرا لهم حسن جيرتهم وانصرفوا.
خرج صابر من غرفة والده بطيء الخطي كأنما يسوق الموت أمامه واضعا يده في فتحة جلبابه على صدره ، ووجهه يرتجف من الغضب والحنق .
ـــ تتحداني ؟.

كانت سمية مكانها لم تبرح ببهو الدار ، مطرقة رأسها إلى الأرض بحزن يتملكها ، فرأت لكلمة زوجها شرا مستطيرا يلوح في الأفق ، فتمتمت بالدعاء أن تمر الليلة على خير وسلام ..
لم يعر عثمان لما قاله اعتبارا ، فقط أشار لعلي بيده أن يذهب إلي الصيدلية ليحضر الدواء.
صرخ بصوت كالرعد:
ـــ علي ..

تسمر علي في مكانه واستدار إليه في وجل ، فتاريخه الصغير مع هذا الرجل محفوف بالدموع ، فقلما اجتمعا معا في مكان حتى يعتدي عليه بالضرب الموجع ، و الإهانات المقيتة.
ـــ تعال هنا .

تقدم نحوه ببطء تتقدمه يده الممدودة بالروشتة وهي ترتعش ، لكن عثمان قطع عليه طريقه بنزعة مفاجأة للورقة من يده ، وتجاهل الجميع واتجه إلى الخارج ليحضر الدواء بنفسه ، لكن صابر عاجله بضربة شديدة موجعة في ظهره مع قوله: سأقتلك يا ابن الكلب ، دفعته الضربة للأمام حتى ارتمي على الباب الخشبي محدثا ضجة ، فالتفت إليه عثمان واشتبك معه ، ودارت بينهما شتائم ولكمات متتالية وصراع على الأرض ، تعالت صرخات متحفظة من سمية لما يحدث خشية إزعاج المريض ، وحاول علي فض اشتباكهما لكن صابر صرعه أرضا بضربة من قدمه في بطنه بعدما اصطدم بمنضدة نحاسية ذات أكواب فأحدثت ضجة .. خرج أبوهم على إثرها يرفل في التعب المضني ، فاستند على الباب يرمقهم بنظرة حسيرة منكسرة وسقط مكانه.

٧

مر أسبوعان على موقعته مع أخيه ولم يبق سوي أسبوع واحد على يوم زفافه ، لكن شيئا لم يتغير بعد جلسة جمعت ثلاثتهم وطالت حتى خمس ساعات متواصلة تكلم فيها الأب فأسهب ، ووعظ فلم يجد لمواعظه قلبا مؤمنا ، حيث لم تزل **"سأقتلك يا ابن الكلب"** التى قالها صابر محفورة بأذنيه لم تغيرها حِكَم الأب العتيقة ، ولا أسلوبه الرصين الذي أصقلته الحياة ، ولا صوته الرزين الذي يحمل نبرات من الزمن الحكيم والأليم معا.

ــ لم يكن لي أخ حتى أستشعر معنى الأخوة ، أو أن أحس بدفئها ، كنت أراها حية متجسدة ككائن يسير بين كل أخوين أراهما متلاصقي الأكتاف، كنت أحسدهما ، وأشعر بالغيرة تمزق قلبي وتنفضه ، فالأخ هو الصحة عند المرض ، والغوث عند الشدة ، والحياة لمن فقد أسبابها .. بل الحياة عند الموت .
ومضت الأيام ، ولا أجد لي عزاء إلا فيكما قبل أن أرزق بعلي أخيكما.
لكنني اليوم طُعنت من الخلف ، وأُتيت من مأمني ، وضاعت في لحظة أماني السنين وزخر الزمن ، ولا أشعر الآن بمرارة الزمن السحيق لتفردي فقط ، بل أشعر بمرارة طفل صغير يقاسي هوان اليتم والضياع أيضا.

كانوا يجلسون في (فراندة) البيت متنافرين ، ولاّهم صابر ظهره ثانيا إحدى ركبتيه في جلسته على الكنبة وهو يدخن سيجارة بحضور والده على غير العادة ، أما عثمان فأطرق رأسه إلي الأرض ساهما ، بينما وقف علي على الباب الفاصل بين (الفراندة) والبيت من الداخل كأنما يترقب لحظة مفاجأة ينقض عليه صابر فيلوذ بالفرار.

جلسة صامتة من المشاعر مهما علا فيها صوت الكلام ، متلعثمة المعاني مهما انطلق فيها اللسان ، لأنها في نظر الأبناء لا تزيد عن أن تكون مجرد روتين يجب أن يقوم به الأب بعد حادثة كالتي وقعت .

ـــ ما الذي هيّج قلوبكم على بعضها وأشعلها ، ما الدافع الذي يجعل الأخ يكون خصما لأخيه وغريمه ، أبحث عن علّة فلا أجد ..

حقيقة لا أدري !!!.
اسأل رمضان فربما أجابك في غربته ، أو ربما أجبتك بقية التراب المتبقية من جسد سعدية في قبرها ، أو اسأل نفسك الأمارة بالسوء ، أو اسأل أعمالك وما قدمت من تلك الفعال ، فما حدث ليس إلا مقدمة لأحداث جسام تخشاها ، فلكل جيل طرق وسبل في الشر يسلكها ، ترى كيف تكون شرورهم ؟، هؤلاء الثلاثة الماثلون أمامك ولا يرعون أذنا لما تقول ، ولو سألتهم ماذا قلت آنفا ما انتبه لك أحدهم ، فأنت في واد وهم في وديان أخري ، أما أنت فلا تملك إلا محاولات بئيسة كي تصنع من كلامك العذب الرقيق معاول تهدم بها أسوار النفوس الحديدية التى رست في الأرض وشهقت في السماء.

اضحكي أكثر وأكثر يا سعدية ضحكتك المجلجلة الساخرة المعهودة في أذني كلما مر بي سوء ، ولكن لا أرى بعد هذا السوء من سوء بعد تمزق وشائج الأخوة بين الأبناء .. لا أدري أيتها اللعينة كيف يمنع التراب رائحتك المتعفنة ، ولا يمنع صوتك الضاحك مني في قبرك وقد سددته عليك بـ (الخرسانة) المسلحة ولم أدفن فيه بعدك أحدا ..

ـــ عثمان .. عثمان .

عاد عثمان من غربته ، ونظر إلي والده نظرة شاردة وألقي له السمع منصتا ليقول ما شاء
ــ أنت الأصغر ، وعلي الصغير احترام الكبير ولو كان الفارق بينهما يوم واحد ، قم قبّل رأس أخيك ..

فقام صابر على فوره ونظر لثلاثتهم نظرة تحمل طوفانا من الغضب كما تحمل السحاب بحار المطر ، كانت نظرة كفيلة أن تهيج الذعر في قلب علي، كما توقظ الرياح النار الخامدة ، ففر إلي أعلى ووقف محنيا على الدرابزين يتابع ما يحدث من بعيد ..

أحضرت سمية شايا ووضعته وانصرفت في حذر وهي تنظر إلي صابر وعثمان ، وصعدت إلي الطابق الأعلى فوجدت عليا يترقب من بعيد ، يُسمع أزيز خوفه في صدره وتدور عيناه في محجريهما كأنما يترصده عدو خائن لا يدري من أين يأتيه ، فتحاشاها وهي تقترب منه كأنها ستتصيده لصابر ليفتك به ..

ــ علي !! لم تقف هنا وحدك ولا تجالسهم ؟
ــ صابر سيقتلني !
ــ يقتلك ؟!! من قال ذلك ؟ ، هل يقتل الأخ أخاه ؟ ، لا تفكر في ذلك فصابر أخوك ويحبك .
ــ لا ، لا يحبني سيقتل عثمان أولا ، هو قال له ذلك ثم يقتلني بعده !
اقتربت منه أكثر لتطمئنه
ــ لا يا علي صابر لم يقصد شرا بعثمان ، وما قاله لم يكن أكثر من كلام ساعة شيطان ، انظر ها هما يحتضنان بعضهما أرأيت ؟ .. ألم أقل لك ساعة شيطان ووّلت.

كان عثمان قد قبّل رأس أخيه ، واحتضنه في شيء من الود والحب رآه الأب وحده ، وابتهج بما يرى لهذا الانتصار الساحق على وسوسة تراب القبور ..
التفت علي إلى سمية بريبة أجلمته عن الكلام ، نظرة تحمل أكبر **"كيف"** في تاريخ العلاقات بين الناس ، لكنه لم يسألها واكتفى بصمته وتسلل من الباب الخلفي للبيت وانطلق إلي الحقل.

أذنت الشمس بالغروب والرحيل عن صفحة اليوم ، ولم يزل عثمان مسندا ظهره أسفل شجرة الصفصاف على جانب الترعة بالقرب من الحقل ، يرشق الماء بالحصى بطريقة تجعلها تزحف على صفحته مرتين ..

لم يخل باله من لحظات قضاها في حضن أخيه حين جلستهم الأخيرة بعد اعتذاره ، وتلاشت خلالها "سأقتلك يا ابن الكلب" في ثنايا الدفء الأخوي الذي سرى في خلجاته ، حتى قضى هذا الدفء على كل ضغينة كانت قد نشأت بعد عراكه معه . انفرجت شفتاه عن ابتسامة هادئة ، فسروره لانتهاء الأمر لهذا الحد نعمة يشكرها ليس لمجرد أنه يؤثر السلامة في كل أموره ، بل لأنه لا يقوى على النزاع أو الثبات مع حقه وانتزاعه والدفاع عنه ، حتما كان سُيهزم هزيمة نكراء لقصور نفسه المعهود والذي يعرفه عن نفسه جيدا ، ووقتها سيتجرع مزيدا من الحسرة والألم ، لكن بهذه النهاية فقد اعتذر بندّية كـ (أدبا منه) وليس كصغير جبان.
لكنه لم يستطع تفسير هذا التحول المضاد في أقل من نصف دقيقة على وجه صابر بعد قومته ونظرته الغاضبة الهادرة ، والتي تبعها بابتسامة عريضة أضاءت وجهه ثم تقبيل يد والده ، حتى قوله **"عثمان أخي والعراك لا فائدة منه في تصفية الخلافات"** لم يستطع أن يفسره ، فربما يدبر شيئا آخر بعيدا عن الشجار والاشتباك بعدما أثبت عثمان قوة جسدية بصرعه إياه

أكثر من مرة ، ربما العراك لا يكون وسيلة جيدة في فض النزاع ، ولكن التآمر والتستر بالتدابير الخفية عن عين الغريم فيه الشفاء والنصر ، ربما . لكنه حملها على أحسن وأنقى وجوه الظن الطيب ، وتابعته نفسه مسترسلة عن وعود أخيه بوقفته المنتظرة يوم زفافه حتى قال له "سأقف لك حتى وكأنني أنا العريس" .

استطاب قلبه الزواج بعض الشيء ، وهذا القرب من أخيه قرب إليه فتاته واستحسنها لا لشئ سوي أن تحسّن العلاقة ملأت فراغات نفسه!

ولا يهم ما قد مضى من أحلام دون تحقيقها ، فبإمكانك دائما رسم خطوط الحلم وتفسيره.

ربما سينفرج السحاب عن بعض المطر ..

٨

كان البيت مزينا قبل الزواج بأسبوعين كاملين ، ترفّه من كل نواحيه إضاءة ملونة زاهية تلقي بظلالها على الحقول المجاورة والطرقات حولها ، ولا ينبعث من البيت صوتٌ سوي الغناء الريفي المعتاد في مثل هذه المناسبة ، مع دعوات متصلة بالخير والوئام بين العائلتين والعروسين المنتظرين.

دخلت السيارة ذات الصندوق الكبير التي تحمل فرش العروس بإضاءتها العالية وصوتها المرتفع الذي يطلقه السائق ليشكل نغمة معهودة.
اكتظ البيت بالأهل والجيران والأصدقاء الذين حضروا لمشاركة شيخ البلد وأسرته هذه الفرحة الفريدة بابنته الوحيدة ، فالتف جمعهم حول السيارة ترتسم على وجوههم سعادة صافية ، إلا أن جابر عبد العزيز وأبناءه الأربعة انزووا إلي ركن قريب متعللين ضمنيا بكثرة الالتفاف حول السيارة ، لكن الوجوه الشاحبة لم تعلل خلوها من البهجة والفرحة ومشاركة أهل البيت مسرتهم !.
نزل حسن من السيارة بجلبابه الرمادي زاهيا فرحا يقابل الجميع بالقبلات والأحضان ، وتنصل من الجميع الذين انشغلوا عنه بحمل الأخشاب إلي الداخل حتى وصل إلى علا وقال مبتسما:

ـــ مبارك يا عروسة.
ابتسمت ثم قالت في حياء:
ـــ عقبال زواجك يا (ابو على)
ـــ رأيت عثمان بجانب الترعة تحت الصفصافة وأنا في طريقي إلي هنا.
غضت طرفها خجلا واكتفت بابتسامة رقيقة.
فأردف قائلا وهو يميل برأسه إليها:

ـــ كان مشغولا شاردا ، ترى فيمن كان يفكر ؟.
لكَمته في كتفه مداعبة ، ثم همّ بكلام آخر فدفعته برفق فاتجه نحو السيارة يشارك في حمل الأثاث ..
كان حمدان أكثر الناس فرحا بتلك اللحظات التي يحمل فيها أثاث أخته ، لم يدع قطعة أثاث إلا شارك في حملها إلي الداخل ، ولو استطاع أن ينهى غيره عن حمل قشة منه لفعل واستأثر بهذه الفرحة وحده. تبودلت نظرات سعيدة ومداعبات بينه وبين حسن أثناء حملهما لبعض قطع الأثاث التي اشتركا في حملها معا .
لم ينفك فم أم العروس يزغرد بلايتوقف حتى أنهكت ووضعت يدها علي صدرها إرهاقا ، مع دموع تهطل بين الحين والآخر ، اقتربت منها علا وقبّلت رأسها ثم احتضنتها مع دمعات تسربت من عينيها أمام دموع أمها ، رمقها شيخ البلد فسار إليها ببطء وعيناه لا تفارق حاملى الأثاث ، ثم همس في أذنها ينهاها عن البكاء ، لكنها أشارت بيدها إشارة كأنها تقول إليك عني ، هذه الإشارة التي لو فعلتها في وقت غير هذا لكان عقابها شديدا ، حتى علا راعها فعل أمها فأحنت رأسها إلى الأرض ، لكن شيخ البلد ضحك من فعلها وقبّل رأسها في حنو بالغ ، ثم سار بضع خطوات نحو بعض رجالات من الأصدقاء والأقارب كان يقف معهم فصادفت عينيه في طريقه ابن خاله جابر عبد العزيز وأبناءه الأربعة الذين لم يشاركوا سوي بتمثيل دبلوماسي ، مجرد الظهور الفاتر في المشهد والمشاركة الجوفاء.
رضع الأبناء لبن أبيهم ولم يشذوا عنه في شيء ، يتوسط الأبناء الأربعة كملك ظالم بين حاشيته وجنوده ، متفرقون لكنهم متفقون علي كره هذا البيت وأهله ، ولم يزل الأب مؤمنا أن والدي قد سرق أمه ، ومات ظالما .. أي جهل آمنت به يا جابر وقد أخبرتك أمك بالحقيقه ، فحاججتها وكذبتها، فأقسمت أن جدنا لم يظلمها ، وأن ميراثها ضيعه أبوك علي

الغجريات اللاتي كن ينزلن جرجاوة ، فلا يرحلن عنها إلا ونساءها مطلقات ورجالها فقراء فجارا ..
ما أظلم القلوب عندما تؤمن بالخطأ ثم تُطبق عليه جدرانها ثم تعيش به وكأنه الحق المبين ، حتى إحساننا إليهم لم يعد يجدي ، ولو تركنا عادتنا معهم لزادت النار في صدورهم ، فإلى الآن لو ذكرهم أحد بما نحسن إليهم به لقالوا ما يعطينا من يده ، بل من حق لنا عنده اغتصبه والده من امرأة ضعيفة.
عرض عليهم في وقت مضى أن يملكهم قطعة أرض من أراضيه ، مع بعض المواشي ، لكنهم رفضوا ؛ ورأوا أن يبقوا متنقلين بين ربوع جرجاوة مستأجرين من ملاك الأراضي على ألا يكون له هذا الفضل عليهم.

سلّم عليهم شيخ البلد وصافحهم وقبّلهم ، ودارت بينه وبينهم أحاديث ، لكنه لم يلم ولم يعتب لانزوائهم وعزوفهم عن حمل الأثاث ، ولم يسأل عن شحوبهم واصفرارهم في مناسبة كتلك .
أنهت السيارة تفريغ حمولتها ورجعت بظهرها من بوابة الدار ، وسط زغاريد النساء وغنائهن الذي لم ينقطع ، وتبعها الصبية الصغار مهللين فرحين حتى اختفت عن الأنظار واختفوا معها .

ـــ هلم إلي الداخل لنسترح بعض الوقت .
قالها شيخ البلد وهو يعود بنظره من السيارة إليهم ، لكن جابر لم يبد سعادة ولا بهجة بما يحدث ، ورد بكلمات جامدة قائلا:
ـــ الراحة لأهل الراحة ، علينا أن نذهب الآن قبل تأخر الليل أكثر من ذلك!

تأخر الليل!! لم تؤذن العشاء بعد ، وحتى لو تأخر الليل فلستم على سفر بل لستم صغارا يخشي عليهم ظلمة الطريق .. بل أنتم المتأخرون.

لم يشأ أن يطيل عليهم كلامه بل رأى أن انصرافهم مصطحبين معهم وجوههم تلك أفضل وأليق بهم من أن تعكر الليلة بسحنتهم.

ـــ مع السلامة .

وتتابع الرجال على شيخ البلد مهنئين ، ومستأذنين لينصرفوا فكان يشد على أيديهم ليبقوا لكنهم يصرون على الانصراف فيتركهم ، وكذلك كانت النساء مع أم العروس.

جلس حمدان وحسن على عتبة الدار منهكين ، لكن السعادة محلّقة فوق رأسيهما في مداعباتهما ، كذلك كانت علا وأمها على مقربة منهما ، فكان حسن يتكلم إلى حمدان كلاما يقصد به علا ، فكانت الأم تنوب عن علا بالرد عنها ، ثم تأمر حمدان أن يسكت أخاه ، فلا يزيد عن قهقهة عالية لم تخرج من فمه منذ سنوات بعد وفاة ابنه الأول.

جلس شيخ البلد على كرسي أسفل شجرة الجوافة بفناء الدار شاردا ، فاتجه إليه حمدان يتبعه حسن حتى جلسا قبالته

ـــ مبروك يا ابو حمدان .
ـــ ربنا يتمم بخير .. عقبالك يا ابو على .
فقال ضاحكا:
ـــ سأتزوج في الجنة إن شاء الله
رد حمدان بضحكة عالية:
ـــ إذن لن تتزوج إطلاقا.
سأل الوالد حمدان عن ابنه فؤاد ، فأخبره أنه مع الأطفال الذين خرجوا خلف سيارة الأثاث ، ثم التفت تجاه الباب فرآه يدلف إليه ويتجه نحو أمه وهو يتراقص في مشيته .

نادت الأم عليهم قائلة:
ـــ العشاء جاهز .
قام حسن على الفور الذي أنهكه طول الطريق بين دمياط وجرجاوة ، فلم يذق طعاما منذ الصباح.

ـــ كما هم لم يتغيروا .
أشار حمدان إلي جابر عبد العزيز وأبنائه بكلامه ، لكن الوالد لم يرد سوى تنهيدة حارقة خرجت من صدره.
ـــ إذن لماذا أتوا ؟ ، ولماذا يحضرون في مناسباتنا إن كانوا بهذه القلوب ؟ .. وما الذي يرضيهم ؟

ودّ لو صارحه بطبيعتهم لكنه لم يشأ ذلك حتى لا يقضي على الأمل الذي سقاه لابنه في كل مرة كانا يتجاذبان هذا الحديث في صلاح ذات بينهم ، إنهم لا أكثر من أنهم محتمون بجنابنا وكنفنا ، ذلك يمنع عنهم شيئا كثيرا من جرأة الناس عليهم إذا علموا بقطيعتنا لهم ، لذلك يظهرون معنا في كل موقف.

نهض الوالد من جلسته قائلا:
ـــ العشاء جاهز ، وحسن لن يبقي لنا شيئا.
ارتسمت على فمه ابتسامة متكلفة وقام يتبعه .

في صباح اليوم التالي كان بيت شيخ البلد على موعد مع (المنجدين) الذين سيقومون بتنجيد الأخشاب وكسوها بالقماش والقطن ، وهو يوم من أكبر وأطول الأيام سعادة في أيام التجهيزات للعرس في بيت العروس ، وتسبقه تجهيزات عديدة ، وقعت أغلبها على كاهل فريدة وأم العروس ، فاستيقظا معا في الفجر وقاما بتجهيز الأطعمة ووضعها في الأواني دون إنضاجها ، وأخرج عثمان وحمدان الأثاث إلي الفناء ، ثم ذهبا لإحضار (صوان) لتظليل الفناء من الشمس.

وفي تمام التاسعة صباحا كان الفناء قد تم تظليله ، ووضعت به بضع مراوح أيضا ، وانتظروا المنجدون حتى حضروا قبيل العاشرة ، ووضع لهم طعام الإفطار فأكلوا ، وبدأوا في عملهم.

وبعد ساعة أو ساعتين أخذت الدار في الازدحام لتوافد رجال ونساء عليها يحملون هدايا للبيت كعادة اعتادتها القرية تُرَدّ في مثيلاتها ، وأصبحت الدار كخلية نحل ، بين نساء يصفقن ويغنين ، وغيرهن يقمن بترتيب ما ينتهي منه المنجدون ، وغيرهن بالمطبخ لإعداد مزيد من الطعام ، أو لإعداد الأشربة المختلفة.

كان الغناء ينبعث من الداخل شجيا ، أجواء الفرحة غامرة ، يكاد التراب يتراقص من فرحته بهذه الحال السعيدة التى أنعم الله بها على هذه البيت..

كان شيخ البلد جالسا في (فرندة) البيت بين رجالات تدور بينهم أكواب الشاي ، وخراطيم النراجيل ، لا يسمع لهم صوت لارتفاع صوت الغناء المنبعث من مشغل الموسيقى القريب ، أو لصياح الأطفال الأهوج ، غير أن وجوههم تنطق بالسعادة والبهجة والضحك.

بينما كان الأخوان معفرين بالقطن وقد وضعا نفسيهما رهن أمر المنجدون فيما يطلبون.

وقفت علا في نافذة حجرتها المطّلة على الفناء مرتدية عباءة متداخلة الألوان يغلب عليها اللون الأحمر ، وسط صديقات حضرن لمشاركتها فرحتها ، تتابع جزءا صغيرا مما يفعله المنجدون ، حيث منعت المظلة رؤية كامل ما يحدث ، ما دفعها للنزول.
سُرّت النساء لرؤية علا فتبادلن معها التبريكات والدعوات ، وجلست بينهن كملكة بين جواريها واستأنفت النسوة غناءهن

"يا منجد علّي المرتبة
عروستنا ناعمة غُرّيّبة
يا منجد علّي المرتبة
اعمل حساب الشقلبة
ليلة بيضا الليلادي
إحنا اللي كدنا الآعادي
ليلة بيضا وليلة نور
احنا اللي كدنا العزول
هش عليهم يا دبان
العزول واقف زعلان"

وضعت علا وجهها بين كفيها وقد اتقدت جمرة وجهها خجلا من كلمات الأغاني التي أطلقتها العجائز المنشدة ، وتمايل عليها صديقاتها ضاحكات خجلا ، بينما استمرت النسوة في غنائهن الضاحك من علا ، تشاركهن أمها غمزهن ولمزهن.
مر عليهم شيخ البلد متجها إلي الحمام ، فأشارت إليهم أم العروس ، فانتبهوا له وغيرن غناءهن فجأة:
"يحيا أبوها يحيا ..."

فنظر إليهم وابتسم ابتسامة عريضة ملء وجهه ...

من ذا الذي ينكر وجود السعادة في الحياة ، وأي قلب آثم يدعي زورا أن السعادة باب مغلق ضلّت الخلائق مفتاحه ، فما تكون السعادة غير هذه الابتسامات الصافية التى تلون تلك الوجوه هنا ، وما هي السعادة غير الضحكات التي خرجت من صميم القلب فأضاءت المكان بالمحبة ، وهل السعادة أكثر من فرحة صافية خالصة من الأوجاع يشعر بها القلب هنيهة من الزمن يفتقد فيها القلب إحساسه بالزمن ، ويتعطل فيها العقل عن تذكر أي شيء يعكر صفو تلك اللحظات.
وإن كانت لحظات ، ولكن القلب يستطيع العيش بها وعليها وقتا طويلا يواجه بها أوجاع المستقبل ، إلي أن تتجدد ميعاد الفرحة والسعادة من جديد.

خرجت فريدة من المطبخ تحمل صينية كبيرة بين يديها تنوء بحملها ، محملة بأكواب عصير متنوعة وفاكهة ، صادفها شيخ البلد خارجا من حمامه ، فمد يده يحملها معها ، فاعترضت إجلالا واحتراما ، فأصر حتى وضعا الصينية على منضدة مستديرة بالقرب من النسوة المغنيات اللاتي لا زلن ينشدن أغانيهن العتيقة ، وأخذت فريدة بدورها توزيع بعضها على الحاضرات ثم اتجهت نحو الباب تنادي حسن وأعطته ما تبقي بها ليوزعها على المنجدين بالخارج ، إلا كوبا بعينه أعدته خصيصا لحمدان أعطته له بنفسها وهي تبتسم ، فبادلها ابتسامة أجمل وهو يشكرها.

ما كاد شيخ البلد ليستقر بمجلسه بين الرجال ، حتى انطلقت أصوات مفزعة لطلقات البنادق الآلية والمسدسات قادمة نحو البيت ، فزعت لها الأطفال واختبئوا ، وتوارى فؤاد الصغير خلف ظهر والده وتحت جلبابه ، وتعلقت العيون بالباب تنظر من القادم ؟ ، وما هي إلا لحظات حتى دخل

جابر عبد العزيز ، وثلاثة من أبنائه يحملون السلاح ويطلقونه في الهواء حتى أفرغوا خزانتان من الطلقات.

نظر حمدان صوب والده الذي اتكأ على ذراعه الأيسر وضحك ضحكة ساخرة ، فهم حمدان معنى ضحكته فابتسم وعاود لصحبة المنجدين. قام إليهم شيخ البلد فسلم عليهم ورحب بوجودهم ، كان يتبعهم خمسة من النساء المتشحات بالسواد مغطاة الوجوه عدا واحدة هي زوج جابر ، والباقيات زوجات أبنائه الأربعة ، محملات بهدايا يوم التنجيد ، مد لها شيخ البلد يده وسلم عليها فوضعت بعض شالها الممتد حتى أسفل الركبة على يدها وهي تصافحه وتهنئة ، بينما اتجهت الأخريات إلي الداخل ، فقابلتهن سيدة الدار بحفاوة بالغة ، فهذا اليوم لا يحتمل أن يُعكر صفوه أي ماض مهما كان سيئا.

تداخلوا في الجالسين ، ولا تزال ألسنتهم تلهج بالتهنئة التى يرد عليها شيخ البلد بمثلها ، ولكن كل رد تسبقه ضحكة لم يفهموا سببها ، لكنهم لم يتوقفوا عند أسلوبه اليوم ، فقد أرجعوه إلي فرحته العارمة.

أحضر حسن صينية كالتي كانت تحملها فريدة منذ قليل وقربها إليهم ، وانصرف.

تساءل جابر بخبث:
ـــ أين العريس ؟ هل يتغيب في يوم التنجيد ؟
قال شيخ البلد بأعصاب باردة كمن يفهم جيدا أطوار نفس من يحدثه:
ـــ لم يتغيب ، عثمان في طريقه إلي هنا.
ـــ ألا زال والده يذهب إلي الحقل ويمسك بالفأس !
ـــ وهل خلقنا لسوى الأرض والطين

ـــ كنت أظنه يترفع عن ذلك ويغسل يده من طينها بعد مصاهرة شيخ البلد ويترك الفلاحة للأجراء.

قال شيخ البلد:
ـــ شيخ البلد ليس أكثر من أي فلاح في جرجاوة ، وأسعد أوقات يدي وهي تصافح عصي الفأس .
امتدح الحاضرون منطقه وتواضعه ، ثم قال أحدهم لجابر:
ـــ وهل لو فعل وترك الأرض للأجراء وطلبك للعمل في أرضه أكنت تقبل؟.

وإن كان يستحق هذه الكلمة الجارحة إلا أن شيخ البلد قال في نفسه: لقد قسوت عليه.
فتحفز عبد العزيز ابنه الأكبر للرد وقد غلت عيناه في محجريهما حتى بدتا كجمرتين مشتعلتين ، فبادره شيخ البلد مازحا
ـــ تعرف يا جابر أن لقسم الشرطة عيونا تنقل له أخبار السلاح في جرجاوة وحائزيه ، ولو حدثني المأمور عن ضرب النار عندي لأرشدتهم عنك.

ضحكوا من هزل شيخ البلد وتابع أحدهم قائلا:
ـــ إذن فلتتخلص منه يا جابر ، ويمكنني شرائها منك بخمسمائة جنيه ، وعلى أية حال فهم أفضل من ضياعه وسجنك.
فضحكوا جميعا وزايدوا عليها ساخرين ، فقطب جبين جابر لهذا الستار الذي فتح عن مثل مسرحية ساخرة وهو نصّها.

ـــ ولكنها يا أوباش لا توجد عند أحد في جرجاوة ولا مثلها حتى شيخ البلد إن كان عنده سلاح فلا يزيد عن (كلاشنكوف) روسي ، وهذه ألمانية.

فقال شيخ البلد بوجه لا ينم عن الجدية وصدق مقصده:
ـــ أنا عندي (سكار) ، نوعها الثقيل وليس الخفيف ، يا خفيف.
فضحكوا، وبدت جهالته واضحة بعلامة استفهام تمددت من أعلى عمامته لأسفل ذقنه ، وانتظر شيخ البلد يذكر المزيد عن (سكار) ، لكنه أرعي سمعه لحمدان الذي مال عليه يخبره أن طعام المنجدين قد تجهز ، فأمره أن يعد النضد لهم ريثما يكمل العرض مع جابر حول السلاح ، فابتسم حمدان وسلم عليهم وانصرف.

بادره جابر سائلا:
ـــ وأين هي يا شيخ البلد ، هل يمكننا أن نراها ؟.

هم شيخ البلد بإجابته إلا أن صوتا مفزعا كالذي أحدثه جابر وأبناءه عند دخولهم قد حدث ، فانتبهوا للداخلين ، كان عثمان وصابر وأبوهما تتبعهما سمية تحمل فوق رأسها هدايا للعروس ، تتدلى من حواف السّبت ذيول عباءات لتفصح عما في داخله ، يحمل صابر وأبوه بندقيتين آليتين ، فنهض إليهم شيخ البلد وسلم عليهم بحرارة بالغة ، كانت علا وأمها في مقدمة البيت واقفتين على بابه تنظران للحضور ، فابتسمت لعلا وغمزت لها بعينها بطريقة تفهمها ..

ـــ لم أعهدك من قبل تمسك سلاحا ، أو تضرب نارا يا أبو صابر .
ـــ اليوم هو يوم كسر العادات يا (ابو حمدان) .
كانت عينا جابر تتابعهم من بعيد ..
أبو صابر وأبو حمدان ! ، هذا هو صهرك يا شيخ الزفت الذي ستهب له ابنتك الوحيدة ، هذا هو الفسل الذي فضلته على ابني منذ سنتين يوم رفضته ، هل مائة وخمسون ألفا مهر يجعلونك تفضله على ابني ، ما أحقرك وأحقره وأحقره وأحقره كلاب أبناء كلاب !.

تبودلت التهاني بينهم جميعا ، ثم قال جابر بعدما هدأت الجلسة واستقر كل في جلسته:
ـــ وماذا يا شيخ البلد لو أوصلت العيون لقسم الشرطة نبأ هاتين البندقيتين وسألك عنهما المأمور ، هل سترشد عنهما ؟
نظر الحاج خليفة إلي الأربعة بنادق بجوارهم وقال:
ـــ لو سألني المأمور عنهما سأقول له إنهما لجابر عبد العزيز ، وعنده المزيد من هذا النوع.
فضج مجلسهم بالضحك حتى دمعت عيني شيخ البلد ، وانقبض وجه جابر وأبنائه الذين تلاهوا منذ جلستهم في أحاديث فارغة مع من بجوارهم.
رأى عثمان أم علا واقفة داخل البيت تنظر إليه شذرا فقام إليها وقبّل رأسها، ثم سألها عن علا فأشارت إليها بين صديقاتها فصرفت بصرها عنه وتلاهت مع صديقاتها كأنها لم تره.
ناولته كوب عصير مثلج كان بالقرب منها على المنضدة ، وأخذت تحادثه عن علا وتأخذ عليه العهود بحسن عشرتها ومعاملتها ، فكان يطمئنها.
غازلتهما في وقفتهما إحدي العجائز بقولها:
"يا منجد علّي المرتبة .. "
وقبل أن تكملها جرت علا إلي الطابق الأعلى بخطوات سريعة ، فاتجهت أمها إلي العجوز بوجه ضاحك ونهتها عن تكرار هذه الأغنية بلطف ومداعبة.

وفي الخارج كان حسن على رأس المنضدة كـ (سفرجي) في مطعم يقوم على خدمة زبائنه ، بينما كان حمدان على الباب الخارجي يستقبل ثلاثة رجال بدوا من ملابسهم وأسلحتهم البيضاء أنهم جزارون ، حضروا لنحر المواشي التي نذرها شيخ البلد للفقراء في جرجاوة في هذا اليوم .

مع غروب الشمس كان قد تم تنجيد الأثاث وتزيينه ونقله للداخل ، وانتهى الجزارون من ذبح الماشية وتوزيع اللحوم في أكياس بأوزان متساوية، وتوافد على الدار جمع غفير من الفقراء الذين وقفوا على الباب الخارجي في طوابير بانتظار أدوارهم للحصول على بعض اللحم الذي تولى حسن وحمدان توزيعها.

أما البيت من الداخل فقد هدأ من الحركة بعدما استفرغ اليوم كل مجهود في كل عصب ، ولا تزال الدار بلا ترتيب بعد اليوم الطويل ، كحال (الفرندة) التي جلست فيها الأسرتان ...
دارت عينا عثمان بأرجاء الدار يتابع الزينات والأنوار ، يرمق هذه الفُرُش ويرسم فيها وعليها خيالات جميلة تشع في نفسه ألوانا من السعادة .. سيكون الزواج قريبا .. ستفوز من الدنيا بامرأة جميلة وفُرُش موطأة .. حين تقاربها ويمس جلدك جلدها ستأخذك إلي مكان آخر لا تدري أين هو .. لكنه سيكون الأجمل في تاريخ ما رأت عينك وأحسّت نفسك ، تغتسل فيه من أدران السنين ، وتلقي على شاطئه أوجاع الزمن ، وتضمد فيه جراح الأحلام النازفة .. ستتغول في هذه المرأة أكثر لتدرك مكانا هو أحد أسرار شقاء الوجود وسعادته.
على هذه الفرش ، ستجدها وقد تجلت كنجمة ليلية من نجمات (يوليو) البازغة ، وقد اغتسلت في بعض أنهار الجنة ، وتعطرت ببعض رحيق أزهار الفردوس الأعلى .
إن المرأة ترياق لكل ألم ، وشفاء من كل وجع ، وطريق جديدة لمن سدت في وجهه السبل ، بل هي مفتاح لكل باب مغلق ، يكفي أن تكون بجانبك في الطريق حتى ترى كل الأقفال تتهاوى بما تضعه في نفسك من عزيمة ، وفي روحك من تفاؤل ، وفي قلبك من حب.

أين الآن بعد هذه اللذة وكل العيون المتعلقة بك ؟ ، وكل الداخل والخارج يسأل عنك للمباركة والتهنئة وأنت فارس هذا الحدث ، واسمك في المكان يتردد أكثر من الأنفاس ، أين حلم الجامعة يا (بشمهندس)؟!.
إن اللذة الجديدة لا تقضي على أوهام لذة أخري ، تظل معلقة في مخيلة صاحبها كثمرة ناضجة تهش للنسيم ، حتى إذا أمعن في إهماله لها ولم يسارع لقطفها عطبت ، وأوقعها النسيم في الطين.

الآن تضع أنامل قدميك علي طريق جديدة ، تتحسسها ، لا ترى فيها كل سعادة وبهجة تمنيتها ، لكن الأيام دائما حبلى بالمفاجآت لا تستقيم على أمر، بل هي مستقيمة على الاعوجاج لا تفارقه منذ خلقت.
لتعش هذه اللحظات الجميلة بقرب فاتنة كتلك ، أغرق أحلامك بين عسل شفتيها وأحرق أعصابك الموتورة في جحيم نهديها ، واغمس نفسك في فلكها الأسفل ، فربما خرجت شيئا جديدا ، أو ربما شفيت من مرض الأمل.

يوما ما قال لك المهندس عبد الرحيم صديق أن الهندسة هي روح هذه الحياة وأنها أعلي من الطب ، فالإنسان خُلق أولا وفقا لنظام هندسي بديع ، وأخذ وقته في البناء حتى اكتمل وفقا لمشيئة الله وما أراد من هذا الوقت في الاكتمال ، ثم خُلق الطب ليكون خادما على ما يطرأ على هذه الصنعة الربانية من أوجاع فالطب تابع للهندسة ، حتى قيل : إن أحد الأنبياء سأل ربه قائلا: يا رب خلقت الداء والدواء فلم الطبيب ؟ ، فقال له سبحانه: لكي يرزق.
يومها اقتنع أحد أصدقائه من حملة الثانوية العامة ممن حضر معه ، فعدل عن الطب إلي الهندسة ، ولم يشغل باله بكلام أب أو أي إنسان.
لم يتزوج المهندس عبد الرحيم إلا بعد حصوله على بكالوريوس الهندسة من جامعة القاهرة ثم الماجستير ، حتى وظيفة الحكومة التى يضرب لها الطبول

وتقام لها الأفراح في كل نفس تحوزها رفضها ، كان يهاجمها أشد المهاجمة ، فالوظيفة الحكومية كالمرأة المعلقة لا هي متزوجة ولا هي مطلقة ، فالوظيفة التى تضمن للموظف راتبا يأتيه آخر كل شهر سواء قام بعمله أو لم يقم به جديرة بأن تقتل أي مهارة وكفاءة بين أروقة مكاتبها ، وتكون علما واضحا على فشل هذه الحكومة ، واتجه صوب الشركات الخاصة بمرتبات أعلي وزادت خبرته عن أصدقائه المهندسين في القاهرة الطامعين في المعاش.

ـــ لا تمعن النظر في السرير لم يحن الوقت بعد.
قالتها أم العروس مداعبة وقد ظنت أن خياله قد ذهب لليلة الدخلة ، فرد باسما:
ـــ أقام المنجد بتعلية المرتبة ؟
ضحكت الأم بملء فيها وقالت:
ـــ ينتظرونك بـ (الفرندة) .

لم يهدأ صابر بعد ، أصر على إفراغ خزنة أخري في الهواء ، وما إن دلف عثمان إليهم حتى قرب السلاح إليه قائلا:
ـــ اضرب يا عريس.
تراجع عثمان قليلا عن السلاح قائلا:
ـــ أنا لا أمسك السلاح.
سخر منه صابر بعدما وجه سلاحه لأعلى وأفرغ ما تبقى منه من رصاصات
ـــ شباب أجوف

قال حسن:
ـــ هنيئا لنا هذا الوصف يا عثمان فأنا مثلك لا أهوى السلاح ولا أجيد استخدامه.

سُرّ شيخ البلد بموقف عثمان ، فالجرأة على السلاح حتى ولو كانت ترفا فهي نذير سوء في وقت الغضب.
ـــ بارك الله فيك يا عثمان ، ورزقك الله السعادة والهناء
ابتسم عثمان لشيخ البلد ممتنا.

كان الهدوء يسود وجه صابر ، تداعبه ابتسامات صافية بين وقت وآخر ، تغيرت فعلا وصادقة تلك الابتسامات ؟ وهذه الطلقات التي تطلقها في الهواء بهذه القوة والعنفوان ، من ترى أمامك حين تضغط على الزناد .. ؟

خرجت الأم من مطبخها تحمل صينية بها شاي وقهوة ونادت فريدة التى كانت تجالس سمية وبعض النسوة وحولهن الأطفال ؛ لتدخلها فرفضت بشدة ، تفاجأت الأم بهذا الرفض فقالت بحدة:
ـــ أتعصيني يا فريدة ؟
ـــ معاذ الله يا أمي ولكن ..
ـــ لكن ؟
ـــ صابر ، منذ حضروا كلما رآني ينظر إليّ نظرات مخجلة !
فمطت الأم شفتيها
ـــ شششش ، احذري أن تخبري حمدان أو أي أحد بذلك.
واتجهت الأم نحو (الفرندة) تحمل الصينية تسبقها نظرات حارقة مسددة تجاه صابر ، فقال لها الحاج خليفة:
ـــ مبارك يا أم علا وربنا يتمم بخير ومتعك برؤية أولادهما حولك
ـــ مبارك علينا وعليكم يا أبا عثمان ، وربنا يبعد عنا أولاد الحرام
لم يعلق أحد على تجاوز صابر في مخاطبتها والده وذكر عثمان إلا ما أضمره صابر نفسه في نفسه
"أبو عثمان" يا بنت الكلب !!!.

دار الحديث بين حمدان وعثمان حول تجهيزاته الشخصية ، وإرشاده لبعض المحلات في المركز التى سيجد فيها ما يحتاج إليه ، وانخرط صابر في الحديث عن السلاح مع حسن وخبرته بأنواعه ومهارته في استخدامه وأبدي حسن تبرمه وضيقه لحديثه لكنه استمر ، وتقارب الشيخان وتحدثا حول يوم حمل الفرش إلي منزل العريس ، ثم يوم الزفاف.
ستكون الجمعة القريبة هي يوم حمل الفرش ، والتي بعدها للزفاف.

٩

كانت الأيام القليلة المتبقية مكتظة بالكثير من الأعمال لإنجازها ، غير ما يتخللها من أعمال أساسية يجب التفرغ لها كحمل الفرش إلي بيته ويوم الزفاف نفسه.
فبعد صلاة الجمعة مباشرة بالمسجد الكبير في جرجاوة كُتب الكتاب ، وتحركت السيارات التي تحمل الفرش من أمام المسجد إلي بيت عثمان ، لا يمكن توقع غياب أحد من أهل القرية لكثرة الزحام حول السيارات ، كان العمدة يشارك شيخ البلد والحاج خليفة في تقدم الجميع وأمام السيارات ، كان تغيب العمدة يوم التنجيد لوجوده في القاهرة بمدرية الأمن ، كذلك أبناؤه تغيبوا عن القرية في نفس التوقيت لأسباب متفرقة منعتهم عن الحضور ، لكنهم تواجدوا بشكل ملحوظ هذا اليوم ، وكان العمدة أحد شهود عقد الزواج.
نُصب الأثاث بشقة عثمان ، وأتقن النجارون عملهم حتى بدت الشقة كقصر أحد الأمراء ..

وفي صباح يوم السبت ذهب عثمان وحمّاد إلي المركز لشراء مستلزماته التى يحتاجها في أسبوعه الأول بعد الزفاف ، مرا أولا على (الترزي) الذي سيحيك له جلباب الزفاف الأبيض ، فوجده لن ينتهي منه قبل ساعات ، مخالفا وعدا ضُرب بينهما قبل أربعة أيام أن سينتهي منه قبل السبت.
فاتجها صوب محلات السوق ليشتري حذاء وجوارب وملابس داخلية ، كان حمّاد يئن مما يحمل حتى اعترض قائلا:
ــ كان يلزمك في هذا اليوم حمارا يحمل عنك لا صديق تسترشد برأيه وذوقه.

فقال مداعبا:
ـــ يا صديقي من حق الصديق على صديقه أن يكون له حمار بعض الوقت.
انتهيا إلي مطعم كشري لإحساسهم بالجوع وليريحا أقدامهم بعض الوقت ، وليستظلوا من حر الشمس وقت الزوال التى كادت تفتك بحمّاد .. كان المطعم يغص برواد أكثرهم أطفال المدارس ، تتعالى طرقعات الأطباق على منصة البيع ..

ـــ مبارك يا عثمان.
ـــ عقبى لك
ـــ لست مغفلا مثلك ، ولن أدع نفسي فريسة للزواج ، وتسوقني امرأة نحو الهلاك.
ـــ والله أنت بهذا الكلام أكبر مغفل ، فالزواج هو جنة الدنيا.
ـــ حسبك ، أي جنة ! وما خرج رجل الدنيا الأول من الجنة إلا بسبب امرأة، فكيف تحقق المرأة الجنة في الأرض.
ـــ لا تتجن على أمّنا وتظلمها بجهلك.
ـــ سل أي رجل **"هل أنت متزوج؟"** سيقول لك عبارة واحدة **"للأسف"** إن كان متزوجا.

فضحك عثمان وقال:
ـــ إذن من سيسألني لن أرد عليه.
وضع النادل أطباق الكشري ودورق مياه مثلج وانصرف.
ـــ كم كنت أتمنى أن تصدق الأماني ونتزوج في يوم واحد يا حمّاد.
ـــ ما أكذب الأماني ، وعلى أية حال فزواجنا معا أصبح دربا من المستحيل ، أنسيت أن الأمنية لم يتحقق من خطواتها شيء ، فلا أنت سافرت ولا درست الهندسة ، ولا خطوت خطوة واحدة في طريق البشمهندس عبد

الرحيم ، ولا أنا سافرت إلي الخليج كما وعدني أبناء عمومتي هناك ، وأحالوني على تاجر سفريات طلب مني عشرين ألف جنيه نظير عقد العمل.
توقف عثمان عن الطعام على ذكر السفر والدراسة ، واكتسى وجهه المشرق بالسعادة كآبة وغما ، أدرك حماد ما دار بخلد صديقه فقال له:
ــ حذرتك من قبل من مرض الأمل ، وها أنت ذا تبدو عليك أعراضه كاملة.
فقال بلهجة غاضبة ، توعز إليه أن يسكت:
ــ حمّاد ..
فسكت حماد وانهمك في الأكل مع متابعة صديقه بعينين مترقبتين ..
ــ أقول لك سرا أيها الحمار.
ــ قل يا جحش.
ــ تصور أنني فكرت هذه الأيام في حزم حقائبي والسفر إلي القاهرة دون علم أحد بمكاني حتى أنت.
سكت حمّاد قليلا ريثما يتأكد أن أذنه قد سمعت ما سمعت ، ثم قال:
ــ أنت مجنون لا تدري مغبة ما فكرت فيه
ــ ربما نظلم أنفسنا أحيانا لأننا عاملناها بالحكمة والعقل في بعض الأوقات ، وقد يكون الجنون والشطط أولى من التريث والتعقل في بعض المواقف.
ــ ولماذا لم تفعل ؟
ــ لأنني آثرت الانصياع لذلك الأحمق الكبير الذي يسميه الناس العقل.
سكتا لبرهة ، فأردف عثمان قائلا :
ــ ألم تحدثني عن عبده الحامولي من قبل ؟
ــ نعم ، كنت مثله يوم حدثتك عنه ، لكن حالك الآن مختلفة عنه ..

انتقلا من محل الكشري إلي مقهي قريب منه ، طلب حمّاد من نادلها كوبين من الشاي ونرجيلتين ، اعتذر عثمان عن النرجيلة فاندهش لرفضه وأصر لأنه عريس.

ـــ لا سبيل لرفض التدخين هذه الأيام استعدادا للمزاج العالي.

ـــ حمّاد ..

ـــ لا أقصد ما ظننت ، ولكني أقصد الحشيش ليلة الدخلة.

ـــ حشيش !!

ـــ لا تحلو الدخلة بدونه !

ـــ هذا رأي الحشّاشين ليس أكثر ، ادخره لنفسك ليوم دخلتك.

ضحك حمّاد قائلا:

ـــ ليلة دخلتي سيكون الحشيش مستورد.

جاراه باستخفاف قائلا:

ـــ من أين .. الصين؟.

ـــ وليكن ، فقد قررت أن أتزوج امرأة أجنبية.

ضحك عثمان بقهقهة ، فأردف حمّاد قائلا:

ـــ اضحك كما يحلو لك ، لكنني قررت ذلك بالفعل منذ أيام.

ـــ لم ؟ ، أضاقت الدنيا هنا ؟

ـــ نعم ضاقت الدنيا أكثر مما تتخيل ، وأنا أرى الدنيا الآن بكامل مكوناتها في امرأة أجنبية ، أو كما يطلق عليها في جرجاوة (خوجاية) ، فهي المعني الذي وضع في هذا الجسد الطيني ليتحول إلي "امرأة" فيما بعد ، فهي الجمال والحسن والأناقة والدلال الأنثوي الفاتن ، هذه بالفعل جنة الدنيا لو كانت في الدنيا جنة ، غير أنها ستسهل لي طريق الحياة ، سنسافر معا إلي بلدها ، وأُمنح الجنسية وأعمل هناك.

ـــ من أوعز لك بهذه الأفكار الغريبة ؟

ـــ قلة الأفكار وفقد الاختيار يا صديقي ، وعموما فسعيد حسنين من أفضل الأمثلة في قريتنا ، لا شغل له غير الزواج بالأجنبيات ، وها أنت ترى النعمة عليه.
ـــ أنت مجنون !.
ـــ ليس جنونا أن تجرب طرقا أخري غير مألوفة في الحياة.
هدأت الرءوس من وهج الشمس وامتلأت البطون واستراحت الأرجل ، وسارا متجهين نحو محل الترزي ، كان قد انتهي من حياكة الجلباب ، فارتداه ريثما يضبط عليه ذيله ..

*****

مع هدأة الليل كانت علا تناجي أحلامها في غرفتها ، وتتلقفها كطفلة تطارد فراشات الحديقة ، فتمسكها في علبة أحلامها الصغيرة.
عُقد قرانها منذ يوم ، وبجرة قلم تزوجت وحازت لقب امرأة ، وانتقلت من "البنت" إلي "المدام".
ما أسعد هذه التحولات في حياة كل أنثي ، والتي تنتظرها على مضض مع مرور الأيام ، بل هي التاج الذي يوضع على رأس الأنثى ، وكأنما خلقت الأنثى في جرجاوة لانتظار هذا الحدث ..
يدور بفلك عالمها الصغير طيور مغردة ، تشدو لها بألحان السعادة ..
تداعب عرائسها الصغيرة بعينين حالمتين.
فأمسكت إحدى العرائس بين كفيها وتدور بها في أرجاء حجرتها تتراقص بها ..
انتهت إلي مرآتها وابتسامتها منيرة على شفتيها فنحّت دميتها وتحسست شفتيها ، ثم تخللت شعرها بيدها في هدوء مصحوب بتنهيدة حارة .

١٠

من ذا الذي يستطيع أن يعزف على الناي مقطوعة راقصة تخلو من الشجن!
ومن ذا يمكنه أن يشدك نحو البساتين وكل ما تعرفه عن الورود هو الشوك.
أليس الصبار زهرة !!!
أليس الناي لا ينطلق صوته إلا بهواء تبثه إياه لا يخرج صادقا إلا إذا كان قادما من أقاصي النفس البعيدة حيث تقبع أحزانك وأوجاعك المدفونة في توابيت الأماني التى لا تعلمها سوى نفسك .. ثم الناي.
لكنك لا تتكلم فلا يدري أحد كم أوجاعك ومآسيك ..
وكثير ممن حولك لا يعرف لغة الناي ..
أمّية ليست مشروعة لمن يهمه حالك ولا يعذر بها.

تغيرت الغرفة ، أو كأنها استبدلت بغرفة جديدة ، فالكنبة المتهالكة القديمة استبدلت (بدولاب) الملابس ، والسرير الذي كان يزعجه أزيز خشبه المتفسخ عند نومه ــ يوم كان ينام ــ استبدل بسرير جديد أبيض ، حتى نبتة الريحان في إنائها الفخار المعلقة بالنافذة المطلة على الفناء والتى كانت سلوته مع ضوء القمر ، استبدلت بأزهار مبهجة متنوعة الألوان ، لكنها بلاستيك ..
أسفل النافذة المطلة على الفناء وضع كرسيان ومنضدة صغيرة ، لتكون ركنا منفصلا عن الوجود للزوجين السعيدين.
رتب ملابسه الجديدة بالدولاب الجديد ، ووضع أخيرا جلبابه الأبيض و(لاسته) البيضاء ، وجلس على الكرسي أسفل النافذة يستنشق عبير الأزهار البلاستيكية !.

الزواج يوم جديد في حياة الرجل يشرق من عيني امرأة ، تتجلي شمسه وقمره في شفتيها ، بينما أزهاره وورود في وجنتيها ، ويمر اليوم على حال سعيدة ، لا يمكن التنبؤ بخلافها حتى تصطدم الشمس بالقمر في هاتين الشفتين فتخرج الطباع المكنونة ككلام عبرهما فيتغير النظام الزوجي كتغير النظام الكوني تماما ، فإما يقدمان على إصلاح ما ضمر في طبيعة العلاقة الإنسانية التى تربط رجل بامرأة ، وإما يستمر الانقلاب الكوني إلي أبعد مداه ، حيث يستخدم الرجل سلطته وقهره في تثبيت نظاما ما يرتئيه ، وتستخدم هي حيلها وكيدها في ترويد هذا الحيوان الآدمي . فتظل العلاقة بين مد وجذر ، ويظل الحبل ممدودا مشدودا ، يظن أحدهما أن لو أرخى من قِبَله سيلتف الحبل المرخي حول عنقه ليشنق به بقدر ما أرخي !.

أيُ رجل رأتني علا ..؟
وأي حياة تنشدها من خلالي ؟
أكان الزواج أقصى أحلامها فحققته ..!

دارت عيناه بالغرفة وتأملها في صمت ، نظر إلي كل قطعة من أثاثها وأمعن النظر فيها ، تراءت لعينيه علا تتحرك بين محتوياتها ، تبتسم له في دلال بوجهها الباسم دوما ، لتضفي على أحزانه لونا جديدا ينسيه شكله ولا يمحو أثره ، لكن سعادة ما تقترب من قلبه وتعزف على أوتاره ، ابتسم لما رأي علا تستبدل ملابسها بجوار الدولاب ، وترتدي هذا القميص الحريري الأسود الذي لا يستر من جسدها الأبيض سوي النذر اليسير .. وتحركت نحو التسريحة تصفف شعرها الليلي المنسدل إلى ما بعد ظهرها بكثير ، اقترب منها ناسيا كل ما تراكم على رئة أحلامه من أدران ليستنشق عبير تلك الزهرة الغضة البكر التى لم تفح بعطرها لأحد قبله.

امرأة لا يمكن تجاهل ما تجره في أذيالها من أحداث سعيدة ، تحتاج هذه الزخة القوية على قيعانك المشققة ، قد تكون المنقذ من ضلال الأوهام ، وتنتشل بقايا عقلك وأطلال نفسك من شجونها وأحزانها الممتدة عبر تاريخ أيامك.

ومن غير المرأة يستطيع هدم التاريخ والمدن ! ، لتحل مكانه تاريخا جديدا ومدنا أخري. إنها مخلوق سحري يستطيع بابتسامة ناعمة تنساب من شفتين رقيقتين أن تجعل من الحزن أوراقا هشة تذرّها بنظرة عاتية من الحسن المكنون فيها.
وتتجلي برائق هذا الحسن كالماء أرسلته السماء على ما ضمر من قلب الرجل ونفسه وروحه ، فتمر به وكأنها الدواء الذي أنعم به القدر ليشفى .
ومهما كان بالقلب من حزن حتى لكأنه كثلوج متراكمة على باب خشبي مهترئ ، يكفي أن تشرق عليه المرأة بوهج أنوثتها فتبدده بسلام.
إنها المطر المنتظر من رحم سحاب عقيم أظلك سنين ، يوشك أن تهطل فاستعد .. ستغسل قلبك وأيامك معا .

طرقت سمية الباب برفق كما أوصاها صابر أمام والده حتى لا تقطع عليه خلوته بنفسه.
قالت: العشاء جاهز ، نحن بانتظارك
رد بابتسامة فقط ، لا يريد فصل نفسه عما هو فيه ، يريد وقتا أكبر ليتتبع هذا الخيط الذي بدا كطوق نجاة سيشده إلي شاطئ الحياة.
لا يريد أن يخرج من المسبح قبل أن تُغسل عنه كل عالقة ..
كم أنت جميلة أيتها المرأة بما تسكبينه في قلب الرجل من روح وحياة !!
ألا إن الحياة امرأة .. والسعادة امرأة .. والكآبة والحزن والهم والغم فراق امرأة.
تأخر عن النزول إليهم ، كانت السفرة قد رفعت ولملمت الأطباق.

كان صابر مقاربا لوالده يتحاوران في بعض مستلزمات الحقل والمزارع ، وأهم ما تكلم فيه ضرورة الإسراع بعمل التوكيل العام ، حتى يسهل عليه متابعة الأعمال ..

ـــ أظن أنه قد حان الذهاب للمحامي الذي أخلفنا موعده أكثر من مرة.
ـــ أجله للأسبوع القادم ريثما ننتهي من الزفاف وتستقر الأمور.
ـــ لسنا من سيتزوج ، فنحن نذهب يوميا إلي الحقل ونعود وكأن شيئا جديدا لم يحدث.
قال أمام إصراره:
ـــ لم يبق على الزفاف سوي ثلاثة أيام ، الصبر يا صابر .. الشاي يا سمية.
التفت إلي عثمان قائلا:
ـــ أهلا أهلا بالعريس المنتظر
قالها صابر ببهجة بدت أشعتها على وجهه
ـــ عقبي لأولادك يا (ابو خليفة)
قال الوالد:
ـــ كان لصابر وقفة يوم التنجيد لا تنسي ، لقد زلزل بيت شيخ البلد ببندقيته.
ـــ ترد إن شاء الله في الأفراح
ـــ لا أنتظر ردا ، أنت أخي والفرح فرحي .. أنا لا أجامل .
قال الوالد:
ـــ أصيل يا (ابو خليفة)
امتن صابر لقول والده بابتسامة ثم قال:
ـــ أريد أن أراك أجمل عريس في تاريخ جرجاوة ، حتى أجمل من عروسك.
ضحك ثلاثتهم ثم قال والده:

ـــ أما علا فلا أجمل منها أو حتى مثلها ، فأنا على طول عمري لم أر مثل حسنها وجمالها.
بدا على صابر شيئا من الضيق كبته ما استطاع ..
أحضرت سمية الشاي ، فنفر في وجهها زاعقا لتأخرها بإحضار الشاي ، فبدا لعثمان غضبه كما لو كان مبررا لغضب أحدثه بعض الكلام ، فتراجعت سمية آسفة ، ولامه والده على أسلوبه الفظ معها فاعتذر بإرهاق العمل المتواصل كعادته.
بعض الهواجس والشكوك لا تفتأ تراوده بين الحين والآخر لتغيره المفاجئ نحوه ، حتى علي الذي كان يوسعه ضربا وقهرا أخذت معاملته له تتغير ، كأبوة تربطه به تذكرها فجأة ..

ـــ ستكون زفتك من أجمل ما رأت جرجاوة في لياليها، ولك علي استئجار سيارة لتزف فيها كسيارة العمدة.
ضحك الوالد قائلا
ـــ هو بالفعل سيُزف في سيارة العمدة ، أخبره العمدة بذلك يوم الجمعة ، وهذه لم تحدث من قبل أن زُف أحد في سيارة العمدة غير أبنائه ، هذا كرم كبير منه.
ـــ إنه يكرم شيخ البلد ليس أكثر.
تجرع والده كلماته وسكت عليها بمضض ، لكن عثمان قال له:
ـــ أبوك ليس هينا بجرجاوة ، فأراضيه ومزارعه وما يملك معروف ، وسيرته بين الناس لا تجهل ، ولو أنصف الزمان لكان هو العمدة .
قام وهو يقول بسخرية
ـــ عمدة ! هه !! ، بالإذن يا حضرة العمدة !
قام الوالد إلي غرفته فاستوقفه عثمان بقوله:
ـــ أرجو ألا يكون كلامه أغضبك يا أبي.

لم يجد ردا سوى إشارة عابثة من يده ودلف إلي حجرته وأغلق بابها ، وظل عثمان في صمت الدار وحده ، جاءه علي من غرفته يتسحب وقال هامسا

ـــ عثمان ، أين صابر ؟

ـــ كأنك خائف منه.

ـــ نعم ، أنت لا تعرف ماذا يفعل بي إذا اختلينا ، صابر إنسان شرير.

ـــ لا تقل هذا يا علي ، فهو أخوك الأكبر ويحبك.

ليس الحب أن تضمره في قلبك ثم تظهر علي يديك أحط معاني الكراهية ثم تدعي الحب بمن تظلم ، فقط اكرهني وأرني منك معاملة حسنة ، ربما يكون ذلك أليق.

ـــ إنها الحقيقة.

ـــ افترض حسن الظن ، وعلى أية حال فإن ثمة تغيرات قد حدثت في علاقته بك.

ـــ لا أصدقه ، أظنه يضمر شيئا خبيثا مثله ، ويوطّئ له بهذا التغير المصطنع.

ـــ قلت افترض حسن الظن يا علي ، ثم ماذا يريد ليوطّئ له ؟

ـــ لا أعرف ولكن ستخبرنا الأيام القادمة.

وقف حمّاد بالخارج ينادي عثمان فخرج له ودعاه للدخول ، لكنه رفض قائلا:

ـــ الجو الليلة هادئ وهواءه بارد منعش

سارا معا يكتنفهما هدوء القرية ، لمح عثمان في عيني صديقه حمرة فتساءل

ـــ عاودت تدخين الحشيش من جديد ؟

ـــ لم أفارقه حتى أعود إليه.

هز عثمان رأسه آسفا لما سمع ، وهم بنصيحته كالعادة فقاطعه حمّاد قائلا:

ـــ رجاء لا مزيد من النصائح ، أنا أعلم الكثير عن أضرار الحشيش ولكن لن أمتنع عنه ، ليس لأنه إدمان ، ولكني أريده.
ـــ ستظل حمارا ولن تتغير ، تعرف أضراره ولا تتركه !
ـــ يا صديقي الحشيش يصيب الرأس بلسعة نشوة وإن كانت محدودة الوقت ولكنها لحظات السعادة التى تنعم بها رأسي بين كل هذا النكد ، غير إنه يطيح بأوجاعك المتراكمة في نفسك وعقلك مرة واحدة فتتخفف من أعبائها كالضربة القاضية !
ضحك حمّاد ثم أردف قائلا بعدما رأى ضجر عثمان:
ـــ أراهنك يا عثمان ، سيأتي اليوم الذي تدخن فيه الحشيش .. نحن في زمن يحسد فيه العاقل المجنون والرزين السفيه.
قالها بنبرة بائسة حزينة استرعت انتباه عثمان
ـــ مالك يا حمّاد ، ماذا حدث ، نبرتك توحي أن مصيبة قد حلّت بك.
ذرفت عينا حمّاد ، فأردف عثمان قائلا كأنما تذكر شيئا:
ـــ أمك ؟
ـــ رحمها الله.
ـــ متى ولم لم تخبرني حتى أكون بجانبك ؟
ـــ يوم الجمعة الماضية مساء ، ولم أشأ أن أعكر صفوك فأنت مقدم على زواج.
ـــ أنت مجنون
قاطعه حمّاد قائلا:
ـــ حصل خير ، الله يرحمها ، المهم جئت أودعك يا صديق العمر
ـــ تودعني ؟
ـــ سأتزوج يوم الجمعة القادمة .. معك ، أرأيت القدر وأفعاله ، ولكن لن نرى بعضنا لنتبادل التهنئة ، ولن نحمل لبعضنا الهدايا.

ـــ أنا لا أستوعب مما تقول شيئ ، أمك تتوفي الجمعة الماضية ، وأنت تتزوج الجمعة القادمة ، ومن سعيدة الحظ ؟

ـــ لا تسخر مني يا عثمان ولا تكن عونا للزمن على جراحي المزمنة ، العروس هي فرجينيا توماس .

ـــ سعيد حسنين ؟

ـــ نعم ، قابلته منذ ثلاثة أيام ، جاء خصيصا من الغردقة لتعزيتي لمّا عرف بالخبر لما بيننا من علاقات قديمة كما تعرف وأراني صورتها ، ثم أخذ صورتي وأرسلها إليها فوافقت.

ـــ وكم عمرها ؟

ـــ لا تثقل عليّ يا عثمان.

ـــ أعرف سعيد حسنين جيدا وما يجود به على الواهمين أمثالك ، تظن أنه نافذة القدر السعيد ، ولكنه بوابة الجحيم .

ـــ وليكن ، فأي جحيم أكثر مما أنا فيه ، وُلدنا في جرجاوة ونشأنا نشأة أقل من البهائم ، لا رعاية ولا تعليم جيد ولا عمل ولا أي شيء ، فما الذي يبقيني بها ، ربما تكون فرجينيا أكبر من أمي بسنتين أو ثلاث ، وربما يكون سعيد حسنين جحيما ، ولكنه لون آخر للجحيم سيهون من الجحيم العام .

لا فائدة من النقاش أو محاولة إقناعه بالبقاء ، حتى حديث الكفاح الذي كنّا نمنّي به أنفسنا كل حين لن ينفع ، فكل هذه الأشياء وغيرها كفر بها حمّاد تحت وطأة ظروفه القاسية ، أمه أكلها الروماتيزم لمدة ثلاث سنوات لم يستطع علاجها ، استخدم نفسه في مهن سخيفة للحصول على بضع جنيهات يقيم بها أود البيت وعلاج أمه إلي أن رحلت تاركة بقلبه جرحا غائرا لعجزه عن علاجها.

ـــ أتمني لك حياة هنيئة يا حمّاد تعوضك ما فات.

ابتسم حمّاد وقال مازحا:
ـــ ما رأيك لو هربت كما قلت وتزوجت أجنبية ، ليكون زواجنا معا وتتحقق الأمنية القديمة.
ـــ ذلك ليس أكثر من سراب على أرض الوهم.
ـــ الوهم أفضل من جحيم الواقع ، وهذا سبب آخر لتدخيني الحشيش.

ضحكا ضحكة عالية مجلجلة كأن النخيل اهتز لها طربا.

١١

رقد كالثعالب مغمض العينين لكن فكره وقلبه مستيقظان ، يقلّب الأمور ويزنها بدقة ، ويستعرض فترته الماضية ويحاكمها حتى يخلص بأخطائه فيتفاداها مستقبلا ..

في إحدى جلساته الليلية في استراحة عبد العزيز باشا سليمان شرق البلد ، قال له معروف خلاف صديقه وخفير الاستراحة:

ـــ أنت مندفع أكثر من اللازم ، جرأتك على والدك الغير معهودة ، وإشاعة الرعب منك في البيت قد تأتي بنتيجة عكسية غير ما تريد.

ـــ هم يدفعوني لذلك دفعا ، وبلغت من ضيقي من والدي حدا لا يطاق ، فهو دائم التأجيل لميعاد المحامي ولا يريد أن يتحرك نحوه.

ـــ الصبر يا صابر ، الأمور الهامة تنضج بالصبر وتفسدها العجلة. عليك فقط حسن التدبير والتروي

"الصبر وحسن التدبير والتروي" رددها بداخله وابتسم ، هذه صفات الثعالب مثلي ، أم صفات العقلاء في اقتناصهم الفرص ، أيا ما كان فربما خُلق الإنسان لينتهي ـــبعدما يكتمل نموه العقليـــ إلي ثعلب مكتمل الخديعة والمكر ، ما يفصلني عن هذا الحلم سوى بضع أيام قلائل وسينتهي كل هذا العبث ، وسأنتهي منهم دفعة واحدة ، وليهنأ الرجل الخرف وابنه المخنث المدلل بشيخ البلد ونسبه ، ولنرى (البشمهندس) المأفون كيف سيواجه حياته وهو صفر اليدين من كل شيء ، حتى فلاحة الأرض لا يحسنها بتعاليه عليها ، مضى زمنكم وزمني آت يتبختر في حلة أزهى من زى عروسك أيها الغبي .

استيقظت سمية بجواره على صوت ابنها يناديها بعطشه ، فرمقها من أسفل يده بنظرات تقول إن يومك آت أيضا يا ابنة الأجير ، ستستبدلين بغيرك كما يستبدل الربيع الخريف ، وستكون امرأة أجمل من علا وأشهى من فريدة ، وأفضل نسبا من شيخ البلد ..

فريدة .. تلك المرأة التى انسكبت الأنوثة في كأسها حتى فاضت عنها ، وتلونت ببهجة الطبيعة حتى صارت أبدع منها وأجمل ، خدودها الحمراء التي تضاهي حمرة الورد في ربيعه ، وشفتيها الرقيقة الفاتنة المتقدة بنار الاشتهاء ، وصدرها الفج الممتلئ ، وعودها الممشوق الملتف كغصن الشجر ، حتما سأنقب بين ربوع جرجاوة عمن تجمع بينك وبين علا وتفوقهما إبداعا ، وإلا فستكونين يوما ما بجواري هنا ..

يكتمل للرجل عالمه المطيع الذي يبني فيه أسوار إمبراطوريته بالسلطة والمال والمرأة فاتنة الجمال ، وها أنت تقترب من اعتلاء العرش بصبرك يا صابر ، فاتصالك بـ (مطاريد) الجبل وعبد العزيز عثمان باشا سلطة ، والمال يطرق أبوابك مع أيامك الآتية.

قادرون دائما على تبديل صفحة الأيام وطيّها ، لكن الجهلاء هم الذين يظنون أن الظروف أقوى من إرادتهم ، يكفي فقط أن تؤمن بقدراتك الثعلبية في مواجهة تعقيدات الجهلاء أمامك.

قالت سمية:

ـــ لازلت مستيقظا إلي الآن ، فيم تفكر ؟

ـــ أفكر في يوم الزفاف ليخرج بأحسن حال أمام الناس

ـــ الحمد لله أن هداكم لبعضكم ، كم دعوت في صلاتي أن يُذهب عنكم ما أوغر صدوركم ، شكرا يا رب أن استجبت دعائي.

نظر إليها بازدراء قائلا:
ـــ حتما يستبدل الربيع الخريف ، وأنت إحدى أوراقه المتهالكة الساقطة يا ذات العقل العفن.

لم تفهم عنه مما قال شيئا ، لكنها رأت في ذلك إهانة اعتادت عليها ليل نهار، لا داعي لغضبها ، فإهانة الليل يغسلها ضوء النهار ، وإهانة النهار يدفنها سكون الليل وهدوءه ..

ـــ عبد الجليل سأل عنك اليوم في الحقل وقت غيبتك ، وغضب (أبويا الحاج) لعلاقتك به.
ـــ عبد الجليل شعيشع ؟
مع انتشار هذا الاسم في القرية إلا أنه عند ذكره تذهب الأذهان إلي ذات هذا الشخص مباشرة دون غيره.
ـــ ومن غيره ! كاد والدك أن يجهل عليه ، لكنه تمالك نفسه ورد عليه برزانته المعهودة.
ـــ عجيب أمر والدي ، لماذا يجهل عليه وعلى من خلفه ، ولولاهم لاستولت الحكومة على الأرض وبنت عليها الكوبري الجديد ، يوم وقعنا في هذه الورطة لجأ إلي يطلب مني استئجارهم بسلاحهم لإجبار الحكومة على التراجع ، وبعدها أكرمهم وأغدق عليهم المال الكثير ، وعوضهم عن فقدان أحد رجالاتهم ، واليوم ينظر إليهم بازدراء !

ـــ لكن لكل وقت آذان ، وهو يرى أن الحياة تفتح لنا بابا جديدا ، لا يمكن دخوله وثيابنا متسخة بعلاقات مشبوهة بهؤلاء.
ـــ تقصدين نسبنا بشيخ البلد !! غرّك أنت أيضا مسيرة الأثاث التى تقدما شيخ البلد وعمدتها ، أنتم جهلاء لا تفقهون شيئا ، إن شيخ البلد والعمدة لن ينفعانا إذا نالت منا الأيام واستضعفتنا ، ولو عادت كرة الأيام للخلف

وقتما جنت الحكومة علي أرضنا فلن يكون لشيخ البلد وعمدتها من فعل ، إذ أنهما يداها وعيناها في جرجاوة ، هما موظفان لا أكثر ، أنسيتي ما قاله شيخ البلد أن الحكومة لو طلبت من أطلق النار فسيرشدهم عنه بنفسه وكان المقصود جابر عبد العزيز ابن خاله. وعموما علاقتنا بعبد الجليل و(المطاريد) درع نحتمي به من جهل الحكومة والقرية وأهلها .

لم تقتنع امرأة كسمية تؤثر السلامة في كل أمورها بكلامه ، حتى أنها ـــ إيثارا للسلامة ـــ تنفق من كرامتها لهدوء البال لتربية الأطفال .

ـــ لسنا في حاجة للحماية طالما كنا مسالمين للناس ، ولا أدري لماذا ترى في الناس وحشا تخافه ، مع أن كل أهل القرية طيبون مسالمون ، لا شغل لهم سوى لقمة العيش ، والعيش بأمان وسلام ، غير أن علاقتنا الجديدة بشيخ البلد ستؤثرنا كثيرا بتقرب الناس لنا بكل خير

ـــ **"شيخ البلد"** يا بنت الأجير ، لا أسمعها منك ثانية .. لعنة الله عليك وعلى شيخ البلد .

قالت باستكانة:

ـــ الله يسامحك يا (ابو خليفة)

قال مهدئا من نبرته

ـــ الناس لا تخضع إلا للقوة ، حتى وإن ظُلموا ، فإن صادفوا من يحسن إليهم بحسن أخلاقه تجرأوا عليه ، وكأنه هو من ظلمهم لا غيره.

تجاهلته سمية وأعطته ظهرها ، مع دمعة تسيل على خدها

ـــ تصبح على خير .

تمتمت شفتاه:

ـــ في ألف داهية يا بنت الأجير.

لم يهدأ لعثمان جفن طيلة ليلته ، طغي صديقه الراحل على مخيلته وفكره ، وظل برأسه يحدثه ويسترجع معه ذكريات الماضي القريب والبعيد ، ربما كانت تمضي الأيام والأسابيع ولا يراه لكنه مطمئن لوجوده وقتما قصده وجده ، كرصيد في البنك ، لكن الآن تغير الحال ، فرقتهم صروف الحياة ، والأحلام التى تنازع الرأس راحتها كمرض مزمن ، ألا لعنة الله على الأحلام ، كم فرقت بين العشائر والأحبة ، ليتنا خُلقنا بلا أمل أو لم تكن للعقل قدرة على التمني والحلم ، إذن لكنّا أسعد المخلوقات ..

سيرحل حمّاد **"ليعيش"** فلطالما قال لي مرارا وتكرارا : أنا لست حيّا ، أنا مخلوق مسيّر كالبهائم تماما التى يقتادها الفلاح صباحا إلي حقله ويعود بها مع غروب الشمس ، حتى البهيمة تقوم بعمل في الحياة وتُطعم جزاء لها ، أتذكر يا صديقي يوم تقدمت للعمل بشركة الكهرباء وقال لي الموظف المسئول بكل بجاحة: **من ليس معه واسطة لن يعمل** وطالما لا واسطة لي سواء من الوجهاء ، أو من المال لأرشيه فمن أين لي بالعمل ؟.

نحن في بلد يغلب عليها اللا إنسانية ، ويعشش فيها الفساد كالسفود في الصوف المبلل ، إن نزعته منه هتكته ، وهكذا هذه البلد إن نزعت عنها الفساد سقطت ، كالمريض الذي تقف حياته على أدوية المخدرات مع ضررها ، إن منعتها عنه مات ، حتى نحن طالنا الفساد ونتعامل به كالعملة ، ونتسابق نحو المعارف الذين يحموننا بالفساد من الفساد ، وصار المحترم ذو المبادئ إن كان في منصب وترفّع عن السرقة اتهمناه نحن المكتوين بالفساد بالخبل وتمنينا أن لو كنا مكانه لنفسد.

بلدنا أصبحت كالبيت الخرب الذي تأوي إليه الشياطين وخفافيش الظلام، لا مكان لسليم السريرة وذوي المبادئ والقيم فيه.

كلنا في هذا الهم سواء ، من ذا الذي لم يكتو بنير محبوبته ، لكن قربها وقرب الأحبة فيها يهوّن الصعاب .

فكم تمنيت أن تبقى ، نغدوا ونروح لبعضنا البعض ، وإن كانت الحياة لم تبق لنا غير لعق الصبر في ثوب زاه براق اسمه "الأماني".
إن الأماني والطموح أفيون الشعوب المقهورة المسلوبة !.

لم يزل القلق يساوره من فراق صديق العمر بعدما أخبره بعزمه على الهجرة إلي بلاد زوجته الأجنبية ، فالغربة تأكل الشباب المغتربين كما تأكل النار الحطب ، قصص متوالية لشباب هاجروا من البلد ولم يعودوا إليها ، بعضهم فُقد ، وبعضهم لا تربطه ببلدته وأهله سوي رسالة كل حين من الدهر ، كان أغلب الظن أن ما قاله لم يكن أكثر من مزاح أسود فاضت به روحه المكلومة من واقعه الكئيب لكنه يتحقق ، وها هو الآن يفشل في إقناع صديقه بالمكث والصبر ليتحمل ضربة جديدة قوية من الحياة ، في بنيانه المهترئ.
كان حمّاد الغوث الذي يستنجد به إذا أظلمت نفسه وأحاطته الغيوم السوداء فيسرّي عنه ، ويزيح عن نفسه أحزانه المتراكمة بدعاباته السخيفة، كان وقت لقائه هو كل وقت تتعثر نفسه المثقلة بأوجاعها عن الحركة ..
لمن ستكون شكايته بعده ، لعلا ! التى يراها سكينا ذهبيا مغلفا بخيط الحرير وضع على نفسه ، أم لصابر المفترس ، أم لأصدقائه الآخرين الذين لا يرون في هيئته سوى النعمة والجاه ولا يرون فيه الوجع والألم ، كالشمس التى نراها كل يوم كعروس مشرقة مبتهجة ، بيد أن في باطنها نار الجحيم .
لتكن مشيئة الأيام ، ولنمض في ركابها ، فهو قطار لم نقطع تذكرته ، ولا نعلم وجهته ، كل ما تعرفه عنه أننا راكبوه وفقط .

١٢

أشرقت شمس يوم الخميس على الحاج خليفة إبراهيم وهو بـ (فرندة) البيت مستلقيا على الأريكة الخشبية منذ أدى صلاة الفجر. في ذلك الوقت من كل يوم يكون في طريقه إلي الحقل مصطحبا بهائمه وصابر ، لكن اليوم سيتخلفون وسيباشر الفلاحون المستأجرون مهام الحقل ، ريثما يمكنهم الاستعداد ليوم غد الحافل حيث زفاف عثمان .

توقفت سمية عن تنظيف البيت ريثما تعد بعض لقيمات بسيطة لإفطار الوالد ، سألها عن صابر وهي تقدم له إفطاره

ـــ لازال صابر نائما ؟.

ـــ نعم ، ظل مستيقظا طوال الليل .

تناول لقمة ومضغها ثم قال:

ـــ وما الذي أسهره ؟ غريب هذا الولد ، أيقظيه كي يفطر معي.

عادت سمية لتخبره:

ـــ ليس بفراشه يا أبي

اندهش الحاج خليفة لتغيبه صباحا ، فلا يمكن أن يكون ذهب للحقل ، فقد اتفقا بالأمس على ترتيبات اليوم ، لذلك تغيبوا عن الذهاب إلي حقلهم ، لابد أن أمرا ما قد أيقظه مبكرا مع سهره طوال الليل.

وأمام سكوته ، عادت سمية لتنظيف وترتيب البيت ليكون مهيئا للعروسين والزائرين.

بعد ما يقرب من ساعة نزل عثمان إلي (الفرندة) ، كان الوالد لا يزال على هيئته مضافا إليه نرجيلة الصباح المعتادة بعد الإفطار ، رأى على والده شرودا ففاجأه بسؤاله:

ـــ مالك يا حاج ؟
ـــ صابر ليس موجود بالبيت.
ـــ لعله خرج لقضاء بعض أموره وسيعود
ـــ لا أظن ذلك ، هو بالفعل سيعود ولكني أخشى أن يكون في مكان ما بعينه
ـــ أي مكان ؟ !!

لم يكن بالنفس متسع لاستطراد الحديث ، قلقه من أن يكون بالجبل الآن ضربة قوية لهم ، فلا يتقرب من المجرمين سوى أشباههم ، ماذا لو رآه أحدهم نازلا من الجبل وعلم شيخ البلد والعمدة بهذه الزيارة ؟ !
لم ينس نظرة شيخ البلد الفاحصة للسلاح الذي كان معهم يوم التنجيد ، والذي عرف بخبرته أنه (ميري) ، وتغاضى ولم يتفوّه بكلمة.
حتما سيعرف ، فهذه بلد لا سر فيها .. لعنة الله عليه ولد سئ.
كان عثمان مشوش الذهن بما يكفي لكي لا يزيد إلي عقله مشاكل أخري ، فقام إلي حمامه ورجع ، فأحضرت له سمية طعام إفطاره في (الفرندة) فتناوله وهو يحدث والده في موضوعات متفرقة ، كان الوالد يشاركه حديثه بذهن غائب إلا قليلا .. ولم يمر الكثير من الوقت حتى حضر صابر يرفل في ثوب جديد كان قد اشتراه ضمن عدة أثواب بمناسبة الفرح.

قالت له سمية
ـــ أحضّر لك الإفطار
ـــ لا لقد أفطرت
مالت عليه هامسة
ـــ أين كنت ؟ ، والدي سأل عليك ، ولّما أخبرته بغيابك تغير وجهه.
ـــ ولم أخبرتيه بغيابي ؟

ـــ هو من طلب مني أن أوقظك لتفطر معه.
دخل صابر إلي الفرندة مبتهجا
ـــ صباح الخير يا حاج .. مبروك يا عريس
امتن عثمان باسما
ـــ عقبال خليفة إن شاء الله
ـــ اتركنا بمفردنا يا عثمان
نفض عثمان يديه من طعامه وانصرف ..
ماذا يخبئ في جعبته ؟
ـــ أين كنت يا صابر ؟ .. ولا تكذب
ـــ كنت حيث تظن
ـــ وماذا كانوا يريدون منك ؟ ، هل أصبحت صديقا لعبد الجليل ورفاقه المجرمين ؟.
ـــ ليس هناك ما يقلق من معرفتي بهم ، هؤلاء كالدواء المر الذي نلجأ إليه عند الشدائد
ـــ وأي شدة نزعت بك إليهم ؟
ـــ ليست شدة ولكني نشدت عندهم منذ بضعة أيام شيئا لا يتم الفرح إلا به.
قال الرجل بدهشته
ـــ ما هذا الشيء الذي في الجبل ولا يتم زفاف أخيك إلا به؟
ـــ أنت تعرف يا أبي مراسم الزفاف ولوازم الزوار في ليالي الأفراح.
ـــ أيا كان صلتك بالجبل وأهله ، أريدك أن تقطع علاقتك به ، مهما كانت الروابط.

لم يشأ أن يرفض ، ليس احتراما لأمر والده ، ولكن حتى لا يثير غبار حفيظته ويغضب عليه ، خاصة هذه الأيام الدقيقة المهمة.

قال في خنوع
ـــ على العين والرأس يا أبي.
أخذت غضبته في الهدوء والتلاشي شيئا فشيئا ثم بنبرة ناصحة
ـــ تدري ما هي جناية عبد الجليل حتى تطارده الحكومة ، وتلفظه جرجاوة كلها ؟.
سكت مليا وأخذ يدافع عن علاقته بعبد الجليل
ـــ كان قتلا خطأ ، ومن منا لا يخطئ ؟
ـــ لم يقتل حيوانا ، أو إنسانا عاديا حتى نلتمس له مخرجا بالخطأ من جريمته ، فالإنسان السوي الذي يجعل في نفسه مكانا رفيعا محترما لأمه وأبيه ، يجعله وقت غضبه ألا يجهل عليهما ، أو يوجه لهما كلمة تزعجهما ، فما بالك بمن طاش رصاصه حتى لحق ببطن أمه التى ولدته ؟!.

سكت برهة يتلمح وقع كلامه وأثره على وجهه
ـــ أتراك لو غضبت يوما وبيدك سلاح أتقتلني **"بالخطأ"** ؟
قال متصنعا فجعته:
ـــ معاذ الله يا أبي ، تقطع يدي ولا تطرف عينك.
تنهد الرجل مستريحا لوقع كلمته في نفسه ، وكأنه يختبر ابنه بمثل هذه الكلمات كل حين حتى يتأكد من ولائه له ، وليكسر شكوكه المتشعبة بداخله تجاهه .

منذ ثلاث سنوات وهو غير مطمئن ، هناك طَرَقات مقلقة على أبواب نفسه يراها في نومه ولا يدري أسبابها ، يتوهم أنه يفتح الباب فيرى وجوها ممسوخة لها يد كيد صابر التى لا تزال محتفظة بأثر حرق النار على ظهرها ، منذ لسعه وهو ابن ثماني سنوات في أحد الأعياد لسرقته عشرة جنيهات من

محفظته ، يتساءل في نفسه دائما متى تنتهي هذه الآلام ، لكن أغلب الأحيان يصدح في رأسه صوت مسعدة قائلة: **يوم تأتي إلي**.
دلف عثمان إلي (الفرندة) وقد ترامت إلي أذنيه كلمات مما دار بينهما ، كان صابر يشعل بعض الفحم لوالده ويضع بعضه على نرجيلته ، ثم أخرج شيئا صغيرة بنّي اللون من جيبه وقضمه بأسنانه ثم وضعه على المعسّل المشتعل وهو ينظر إلي والده مبتسما ، بادله الوالد ابتسامته وهز رأسه منتشيا بقطعة الحشيش التى طعّم بها حجر النرجيلة .

ـــ هذه بعض نفحات الجبل يا (ابو صابر)
ـــ لا تنس شيئا .
ـــ كله لأجل عيون عثمان
قال عثمان للضاحكين
ـــ لو سألتني عن رأيي ما وافقت على وجوده في زفافي
رد صابر ساخرا
ـــ ابنك محترم زيادة عن اللزوم يا حاج !
قال وقد رقّت سحابته ، وانزاحت بعض غيومه:
ـــ لم يزل أخضر العود ، لكن ننتظر من علا الكثير
أتبعها بضحكة عالية ، بيد أن صابر انزوي وجهه وقال محاولا إخفاء إجهاد نفسه مما ذكر والده:
ـــ أظن أن عوده لن ينضج أبدا
قال عثمان
ـــ لا أريد أن أنضج بهذا الشكل الخاطئ الذي تظنه صوابا

الصواب عند صابر ما اهتدى له عقله المدنس بشهواته ، أنت تعلم ذلك جيدا فلا ترهق نفسك بعظات ستتكسر على صخور شهواته الصلدة ،

وتيقظ أيها الحمار من دهشتك المفرطة لما ترى من والدك الآن وهو "يحشش" ، ما أكثر ما يخبئ هذا البيت من أسرار في شقوقه .. أنت المغيّب الوحيد فيه .

قال والده متندرا ، وهو لا يدري أنه ينكأ جرحا أليما في نفس عثمان
ـــ صديقك المعتوه سيتزوج أجنبية أكبر سنا من أمه
ضحك صابر قائلا:
ـــ علمت ذلك بالأمس كان أضحوكة جلستنا
ـــ لكل احد الحرية فيمن يختارها زوجة
بالطبع إلا أنت
ـــ ولكن أضاقت الدنيا في عينيه ؟ .. غبي مثل والده.
ترحم عثمان على والد حمّاد ، واستأذن منصرفا يلملم أشلاء أحلامه النازفة من تحت أطراف ألسنتهم الحادة التى لا ترحم . كانت هذه الجلسة ذات أثر بالغ في نفسه ، وقعت على أبوابه الموصدة كضربة بمطرقة فأيقظت في نفسه الكثير ، لأول مرة يُجزم عقله دون مجادلته أنه يحسد حمّاد على ما صنع ..
وصل إلي شقته ولا يزال يقلب الأمور بعين غير تلك التى صاحبته طيلة السنين الماضية ، كرر مرارا أن حمّاد كان على حق يوم قرر الرحيل عن هذه الديار التي لا رحمة فيها ولا إنسانية ولا عقل ، كل من فيها جلادون ، ومن ليس جلادا فهو يسعي لأن يكون. مثل صابر أخيه الذي يسعي إلي تقوية عضده بمجرمي الجبل.
تعددت الصور أمام عينيه وتراصت بجوار هذه الصورة ، يوم شجاره الأخير، وكلمات صابر التى خرجت منه كالرصاص ، خاصة كلمته التى ظلت رواسبها في أذنه لم تذهب بعد "سأقتلك يا ابن الكلب" ، وغاص ذهنه المفزوع في أعماق السنين الماضية حتى وصل إلي يوم من أيامه الكالحة

السواد ، حينما أشعل صابر النار في ملابسه المدرسية الجديدة ، كان ذلك بعد سنتين من خروجه من الدراسة نهائيا ، يومها سكت الوالد ولم يبد انزعاجا ، فقط اكتفي بشراء ملابس أخري ، وثّمن فعله ، كان ينظر لأفعاله السيئة بإجلال وترحيب ، لأنه ــ على ما أوضحت الأيام بعد ذلك ــ يريد أن ينقل إليه شخصيته وقناعاته ؛ ليكون صابر نسبه وظله في الدنيا من بعده.

وبالفعل فقد كان فضلا عن تعاليمه ونصائحه سيئا جدا ..

الاثنان فاقدا الأهلية ، سمحت لهما بوطء أرض أحلامك بأقدامهم القذرة ، بل والتحكم في تخطيطها ، لا معنى الآن للرضوخ لهما ، إن الحياة الآن دائرة كاللعبة بين طرفين ، وأنا المتفرج الوحيد ..

وأنا وعلي من سيجني ألامها عند الانتهاء ..

أرهق ذهنه لما يجوس به من أفكار حتى شعر بحاجة ماسة للنوم ، فأخذ قرصا مهدئا واستلقى على سريره ، لكن الأفكار لم تزل مستيقظة فما أمهلته غفوته للراحة سوى دقائق حتى رأى أمه في نومه بردائها ووشاحها الأبيض يجاورها حماد ، تفرد له ذراعيها وكلما اقترب منها ليسكن حضنها الدافئ تباعدت ..

قال له حمّاد بعدما رأى تعبه المضني: لم الإعياء وأنت واقف مكانك لا تتحرك.

نظر أسفل قدميه فلم ير قدميه تحركتا قيد أنملة.

استيقظ على طرق الباب ، كانت سمية تؤذنه بوقت العشاء ..

١٣

اغتسلت الدار بماء الفرح واكتست بثوبه الزاهي ، وتزينت بأنواره المتلألئة منذ البارحة فغدا البيت من الداخل كمصباح متقد ..
تهيأ عثمان بجلبابه الأبيض الذي أحضره من المركز بصحبة حمّاد ، تذكره وهو يلوي لاسته البيضاء ويهندمها حول رأسه .. هزّ رأسه قائلا: من كان يصدق أنك تغيب عن عرسي يا حمّاد ، ملعون كل من فرّق بيننا. نزل إلي الأهل والأصدقاء والزائرين ، فابتدروه بالأحضان والقبل مهنئين.
جاء صابر من الخارج يرفل في ثوب أبيض جديد ، مبتهج الوجه باسم الشفاه قائلا: السيارة جاهزة يا عريس.
كانت سيارة العمدة (الجيب) بانتظاره مزينة بالأعلام والورود ، يقودها جلال أصغر أبناء العمدة ، ركب في كرسيها الخلفي ، أما صابر فجاور سائقها محتضنا سلاحه ، وسار الوالد مع رجالات القرية على أرجلهم حتى بيت شيخ البلد ، بينما تأخرت سمية وولدها مع النساء في الخلف.

نظر إلي مكان صابر من السيارة بجوار جلال فانقبضت نفسه حزنا ، وكأنه يشعر باليتم لأول مرة في حياته ، حيث الأغلب في مثل هذه الأوقات أن لا يجلس بجوار السائق ــ تبعا لتقاليد وعادات القرية ــ سوي الأم. فشعر بحنين عاصف لها ، وكأنها جالسة بجوار السائق مكان صابر تنظر خلفها إلي عينيه باسمة تبدو أسنانها الذهبية وهي تقول بصوتها الرقيق المفعم بالحنان والأمومة: ألف مبروك يا عثمان يا ابني ، ربنا يتمم لك بكل خير.
انهمرت دموعه على خديه وانتحب ، فأغلق جلال زجاج السيارة (الفاميه) حتى لا يسمع صوته الباكي أو يري أحد من السائرين حولهم وجهه ودموعه.

قال جلال:
ـــ لا إله إلا الله ، ما الذي يبكيك يا عثمان بكل هذه الفجيعة في هذا اليوم !.
قال صابر وهو يمد يده على مشغل الموسيقي بالسيارة ليشغله:
ـــ دموع الفرح يا سيدي ، وغدا ستبكي من الهم مثلنا.
رد جلال نافيا:
ـــ لا يا صابر مهما كانت الفرحة فنحن نعرف لحن دمعها ، أخوك يبكي من حزن عميق.
وتناول منديل من أمامه ناوله إياه وأردف قائلا:
ـــ رحمها الله يا عثمان ، تشهد جرجاوة كلها بطيبتها ورحمة قلبها ، أقرأ لها الفاتحة ولا تنسي أن عروسك لا ذنب لها فلا تفسد فرحتها ، والزفة ممتلئة بأهل القرية ، فلا تُري للشامتين ضعفك.
جفف دموعه وتمالك رباطة جأشه وبسط كفيه يتلو الفاتحة ، ثم مسح وجهه بكفيه وابتهل بالدعاء لها.
وكز جلال صابر في غفلته وهو ينظر للسائرين بالخارج على أقدامهم الذين يراهم ولا يرونه ويتندر بهم
ـــ اقرأ لها الفاتحة ، أليست أمك
ـــ هه !.
وبسط كفيه لثوان ثم مسح وجهه بكفيه وسكت.

وصلت السيارة إلي بيت شيخ البلد وخلفها وأمامها رجالات القرية الذين حضروا لتهنئتهم ، كذلك كانت هناك أعداد كبيرة غص بها بيت شيخ البلد.
نزل عثمان واتجه صوب شيخ البلد فسلّم عليه واحتضنه ، وردفه والده ثم صابر الذي تجاهله حمدان عمدا ، ثم ابتدره باقي الحاضرون مهنئين

مباركين، وتقدم شيخ البلد وعثمان نحو الباب الداخلي ، ومرا إلي الداخل حيث كانت علا جالسة تنتظر ، كانت في أبهي حلة تناسب هذا اليوم ، كالملاك الأبيض إذا أشرق فاردا جناحيه في أرض الظلام ..
سلمها له وسار أمامهما بخطي وئيدة حتى خرجوا ، فأطلق الرصاص بكثافة في الهواء ، وكأن المكان ساحة معركة.
وكان أكثر حاملي السلاح وأكثرهم ضربا من جانب عثمان وأهله حتى دهش الوالد لما رأي وسُر به ، ودارت عينيه بينهم متسائلة ، فتلقفه صابر بين الحضور بابتسامة لها مغزاها.

كانت هناك فرقة من عازفي المزامير والدفوف حلقت حول العروسين ، فانسحب شيخ البلد ليقف بجوار العمدة.
كانت عيني صابر لا تفتأ تطلق مقذوفات لا تقل قسوة عن مقذوف بندقيته الآلية ، وهو ينظر إلي العمدة وشيخ البلد وعثمان وعلا وغيرهم ، لمحه أبوه فخشي من تهوره ومن نظرة الشر في عينيه ، رأي والده ينظر إليه فداراه بابتسامة خبيثة وأخفض سلاحه ، وهدأت عينيه الملتهبة على جسد فريدة المتمايل بجوار علا الذي أفرغ فيه مخزون شهواني تراكم في ذاكرته منذ أسبوع مضي.

كان العروسان يتقدمان بخطي وئيدة نحو السيارة ، فتحت لهما أم علا بابها ، فدلفا إليها وسارت على مهل يتبعها جمع غفير من الناس ، كان في المقدمة ــ وكما سبق يوم الأثاث ــ الحاج خليفة وشيخ البلد والعمدة ..

لن تبت هذه الليلة بمفردك ، سيرافقك هذا الملاك الأبيض فراشك ، تراءت لعينيه هذه الصورة الرائقة من هموم الحياة كقِطر الحِب ، تقدمها نحو غرفة النوم وفتح بابها فسارت خلفه بقدمين مثقلتين بالدهشة ، هي بالفعل الآن زوجة ، وهذا زوجها ! وتلك مملكتها الجديدة ، كانت تتسور تلك الممالك

من قبل عبر سؤالها صديقاتها المتزوجات مستفسرة عن الزواج ، ذلك الحلم الزاهي المعلق برأس كل فتاة ، حلم تتمناه وتنتظره كثمرة على أغصان الشجر ، ولكنها لا تستطيع مد يدها لقطفه ، إذ أن معوقاته لم تكن يوما في شأن جليل ذي بال ، بل كلها من صنع عادات وتقاليد جاهلة نشرت العنوسة بين الجنسين ، والعبوس على وجوه الآباء والفتيان والفتيات.

نظر خلفه وابتسم ، ثم مد يده لها فمدت يدها بحذر ، ثم خطي بها إلي داخل الغرفة حتى أجلسها مطمئنة على الكرسي أسفل النافذة .. وترجل تجاه باب الشقة فأغلقه ، وبقي هنيهة مسندا رأسه على الباب ممسكا بمقبضه يغالب عينيه أن تنزف حتى غلبته وفاضت بدموعها فهرع إلي الحمام حتى لا يفسد على عروسه صفو ليلتها .. كان المنتظر أن من يغلق الباب في هذه المناسبة هي أمه ، ثم تسأله قبل أن يتواري وجهها : متى تريد أن أحضر لك الإفطار .. سأظل مستيقظة حتى الصباح إن احتجتني ناد عليّ.

غسل وجهه وخرج إلي صالة البيت وقام بتشغيل التلفاز حتى يشوش على ذهنه استقبال أي إشارات من الماضي ، وريثما تنتهي علا من تبديل ملابسها.

طرقت سمية الباب برفق ففتح لها ، فمدت يدها بصينية صغيرة بها بعض الطعام الخفيف مغطاة بوشاح أبيض

ـــ مبروك يا عريس ، اللبن عندك في الثلاجة.

ضغط علي عينيه بشدة وتأوه بصوت منخفض ، فأردفت سمية قائلة:

ـــ مالك يا عثمان ، أخبر والدي يحضر طبيب ؟

ـــ لا لا ، أنا بخير ، إجهاد اليوم لا أكثر .. عقبال خليفة.

أغلق الباب وترنح في مشيته حتى وضعها على منضدة صغير تتوسط الصالة، وسار إلي المطبخ مجهد القدمين فأحضر كوبين من اللبن .. واستلقي مسترخيا على كرسيه: أنت الحاضرة يا أمي مهما غبت وقام بفعالك غيرك.
وبسط كفيه يقرأ لها الفاتحة ، حتى إذا انتهي وسحب كفيه من فوق عينيه وجد القمر قد أشرق بنوره تاما لا تعترضه سحب ، خلت له سماء الغرفة فلا تنازعه في إشراقه نجوم أو غيوم.
نظر إليها فغمره إحساس رحّالة ادخرت له الشمس وهج أشعتها ونثرتها في طريقه حامية كالجحيم ، حتى وجد الظلال في هذه الشجرة الوارفة .
كاد أن يسألها من أنت ، لكن لسانه سكت ، وسكتت رجله عن الحركة أن تقف ويقربها ، فتقدمت بضع خطوات منه حتى مد له يدها وأجلسها بجواره وعينيه لم تتحول عن شيء دونها حتي أغرقها في خجلها ، فأضحي وجهها كقطعة الجمر المشتعلة التي ستنضج ليلته تلك.

ـــ علا ..

ـــ نعم !.

لم يقصد مناداتها ، ولكن للسانه حظ في نطق حروف اسمها واستعذابه به ، فإن المرأة تصبغ على اسمها جمالا ودلالا منها ، وكأنك حين تري المرأة الجميلة وتعرف اسمها فكأنك تسمعه لأول مرة ، فيطرق أذنك ليس بخبطات مزعجة ، ولكن بعزف رقيق شجي أنيق.
جلست إليه في قميصها الأبيض تغطي ما أبداه من جسدها الأبض بوشاح أحمر ، فلامس كفيها بكفيه ثم قبّلهما .. فذابت روحه بين يديها ، وكأن قلبه أُفرغ مما فيه وغُسل من أدران الحياة وهمومها ثم رد مكانه.
بإمكان المرأة أن تذيب صخور الرجل الصلدة ، وتذهب همومه المتراكمة ، وشجونه الكثيفة ، بنظرة حانية صافية ، إلا أن أكثرهن يفعلن ذلك من منطلق " لواجب" وليس "الحب".

عدة دقائق لم يرفع شفتيه عنها وكأنهما ناما علي شفتيها لطول سهرهما في الغرفة قبلها ، وظلت عينيه لا تبرحا وجهها ، كأنما فتح له باب من الجنة ، فلا يكاد يعي من تعبيرات النفس شيئا ، فهو ليس مذهولا ولا مشدوها ولا مفاجأ ، الجم حسنها ورقتها لسانه .

ولّما أشرقت الشمس صباحا في فراشه ، تأملها وهي مغمضة العينين ، فكانت كسحر الطبيعة التى تأخذ من العقل التفكير ، وتدعه أسير الصمت العميق.

المرأة هي المرأة ، تبجح جمالها أو تواضع ، تظل أبدا كالضمادة التي توضع علي الجراح ، لا يعيبها إن كانت خشنة ، لكنها في النهاية تشفي.

أنت المطر الذي أنبت في نفسي المجدبة نوّار الأمل ، أتيتِ على غير موعد كأمطار يوليو ، وأنبت رذاذك في روحي معاني الحياة ، وفي قلبي دقائق الحب ، وتسللت عبر شقوق جدراني الهالكة ، فشدت عضدها ، وقوّيت بنيانها .. أنت المطر الذي ملأ دلائي الفارغة ، وأفاض آباري اليابسة ، وعمّر صحرائي الموحشة بأشجار وورود.

أقول لك بعد ليلة واحدة كفي !؟ أم زيدي الشريد منّا ، والظمآن ريّا ، والخائف أمنا ، والملتاع رحمة وسكينة !؟

أيتها القدر المبتسم .. شكرا لآخر العمر.

١٤

امتلأت الدار بالزائرين صباحا حتى قرب العصر ، وظلت تستقبل الوفود من أهل القرية والجيران وأصدقاء العائلتين ، إلا أن أسرة شيخ البلد لم تأت إلا بعد العشاء خلافا للعادة ..

وعند وصوله وعائلته قال له الحاج خليفة
ـــ قلقتنا عليك حتى بعثت من يأتينا بخير يطمئننا ، خشيت أن تكون مريضا
ـــ كنت بمدرية الأمن ولم استطع الاعتذار يا حاج ، وعموما ألف مبروك.

ومما جرت به العادة في جرجاوة ، أن الأسرتان يجمعهما إفطار واحد صباحا لذلك قال شيخ البلد مداعبا
ـــ ذلك أفضل يا حاج حتى لا تعكر شيبتنا صفو الشباب

بعد العشاء الذي جمعهم عوضا عن الإفطار ، قامت علا وأمها وفريدة إلي الطابق الأعلى ، لم يفت صابر محاصرة فريدة بمخالب عينيه ، حتى شعرت كأن تلك النظرات أحجار ترمي بها ، وأن إحداها على وشك إصابتها في وجهها وسيصرعها ، لاحظت أم علا هذه النظرات وسكتت كي لا تفسد فرحة العروسان ، وحرصا على بقاء صفاء العلاقة كما هي.

قال الحاج خليفة:
ـــ جعله الله زواجا مباركا.
قال جمعهم: آمين. عدا صابر الذي تحركت شفتاه دونما إفصاح عما يقول.
قال حسن بتلقائية:
ـــ ستظل جرجاوة لسنين تحكي عن الجمع الذي حضر فرح بنت شيخ البلد.

قال صابر بحدة:
ـــ معارف أبي وأحباؤه أكثر من أن يعدوا ، حتى أكثر السلاح الذي جعل للفرح صوت وسيط كان من جانبنا.

قال حمدان:
ـــ حسن لا يتباهي ولا يفخر عليكم ، ولو انتظرت لفهمت قصده (ثم بلهجة لها مغزى يفهمها) ولا داعي للحديث عن السلاح.
تدخل الحاج خليفة مخففا حدة التوتر
ـــ عقبال خليفة يا أبو خليفة ، عقبال فؤاد يا أبو فؤاد ، أما أنت يا حسن فأجرك على الله.
ضحك جمعهم ، ضحكة ربما فرضتها روتين جلستهم في ظرفهم أكثر من المزاح ذاته ، ولّما هدأت شفاههم قال شيخ البلد للحاج خليفة:
ـــ بخصوص السلاح يا حاج ..
جحظت عيني الرجل ولم يبد ردا ، فأردف شيخ البلد قائلا:
ـــ نريده .

قال الرجل بارتجال:
ـــ عندك فرح !!
ـــ الكلام جد لا هزل فيه ، نريدك أن تسلمني السلاح الذي عندك ، ستة عشر بندقية آلية ، وثلاثة وعشرون فرد خرطوش .
بهت الرجل ولم يستطع ردا ، كان صابر يتابع الحديث من طرف خفي ، يستطيع التقاط بعض ما تلفظ به الشفاه دون أن يسمعها ، وكان مما فهمه عن شيخ البلد هذه الكلمة: السلاح ..

قال الحاج خليفة نافيا أي ظن سيئ عن نفسه في نفس الرجل
ـــ يا شيخ البلد تعلم أن ما نحوزه بندقيتان وفرد خرطوش ، ولا يرضيك أن

قال بود مقاطعا:
ـــ يا أبو صابر ، لم أقصد ما ذكرت ، أن تعلم قصدي تماما ولو أردتهم لقلت ثمانية عشر بندقية ، وأربعة وعشرون فردا
وأشاح بنظره تجاه صابر
قال الرجل مبادرا:
ـــ كانوا من أهل القرية يجاملوننا لا أكثر ، وليس لنا سلطان على ود الناس لنا ، فلا نختار نوعه ولا شكله ولا خروجه منهم.
ـــ يا حاج ، أنا أعرف كل شيء بالتفصيل فعيب عليك مراوغتي ، وعلى أية حال فهذا السلاح من الجبل ، أتفق عليه صابر مع عبد الجليل قبل الزفاف بيوم أو يومين على الأكثر ، وحتى يبعد الشبهه عنكم استأجر السلاح برجاله .. أنا أحميكم.

أحضرت سمية صينية عليها أكواب حمراء وقالت:
ـــ الشربات.
قام إليها عثمان فحملها عنها ، فأطلقت سمية صوتها مزغردة بوجه سفر بالسعادة.
ـــ الشربات
قال أبوه:
ـــ عمك فؤاد الأول.
تناول شيخ البلد كوبه واستدار بوجهه للآخرين ، مؤذنا أن النقاش قد انتهي وعلى الحاج خليفة أن يقرر ماذا عليه أن يفعل ..
قال شيخ البلد لعثمان بعدما فرغت أكوابه واستقر مكانه
ـــ أجازتك ستنتهي آخر الأسبوع يا عريس.
ابتسم عثمان قائلا:
ـــ لم أنس ، أشكر مجهودك يا عمي.

قال الحاج خليفة:
ـــ أي أجازة !.
ـــ أنسيت يا حاج أن عثمان موظف بشركة الكهرباء !! لن أستطيع تأجيله أكثر من ذلك.
ـــ هاااه .. إذن من أول الأسبوع يمضي إلي وظيفته.

والحقل ، وأنا .. أنظل أنا وزوجتي أسري عذاب الأرض ، (والمهندس) يغرف من عرقنا حناء له ولزوجه !!.
أسرها صابر في نفسه ولم يعلق ، واكتفي بصمت خانق ، لكن الدهشة بدت بوضوح على وجه عثمان لموقف والده ، خاصة وأن الشركة ستلتهم كل وقته ، إذ متابعة المحولات الكهربائية التابعة للشركة متناثرة في المركز كله ، ولن ينتهي من عمله إلا مع دخول الليل ، ولن يكون ثمّ وقت فائض للأرض ، فلماذا رفض ذهابه لاستكمال دراسته لأسباب (منطقية) تنازل عنها بسهولة الآن !.

*****

مرّت ثلاثة أيام ولم يُعِدّ ردا مقنعا لشيخ البلد حول السلاح ، ولم يستطع مفاتحة صابر ولا مناقشته ، فبمرور الأيام أصبح شيئا بداخله يكبر ويخيفه منه لا يدري ما هو تحديدا ، لكنه في كل الأحايين يتودد إليه ، إلا أنه قد ضاق الخناق عليه ، فشيخ البلد أرسل إليه مرتين ، وإلا سيخلي بينه وبين قسم الشرطة إذ أن بلاغا قدّم ضدهم ، وما يحجز الشرطة عن التعامل معهم سواه ..
بعد العودة من الحقل واستوائهما في مجلسهم أسفل الشباك الحديدي ، قال له مترددا:
ـــ كان السلاح من الجبل ؟.

فرد عليه كمن يعرف الموضوع كله:
ـــ وشيخ البلد طلبه منك لتسليمه للشرطة.
ذهل الرجل فتساءل:
ـــ ومن أين عرفت ؟.
ـــ لاحظت وهو يسر إليك بالحديث أنه يتطرق إلي السلاح.
ـــ طلبه مني.
قال ببرود:
ـــ وماذا بعد ؟.
ـــ أنا من يسأل ماذا بعد ، الرجل يقول أن هناك من وشي بنا للحكومة وقدّم بلاغا في القسم.
ـــ وإلا .. ؟
ـــ من أين لك هذه الأعصاب !.
ـــ اهدأ ، الأمر أبسط من ذلك ، مثل شيخ البلد لا يتفضل علينا ، ونحن لن نقبل أن نعيش في ظلاله ، فنحن رجال نستطيع الدفاع عن أنفسنا ، فليوفر على نفسه ويخلي بيننا وبين الشرطة.
ـــ ستحارب الشرطة ؟.
ـــ لا ، ولكن القسم كل ما سيفعله سيأتي إلي هنا للتفتيش ، وبدوره سيقبض علي وسيحقق معي ، وسأحيله إلي الجبل ، نحن لسنا مسئولون عمن يحدثه الآخرون في المناسبات العامة مثل حفل زفاف.
ـــ أنت شيطان .
أمتن لهذا المدح الموفور
ـــ إذا حدثك ثانية فقل له: لم يكن سلاحنا وليس لنا به علم ، والبيت ليس به قطعة سلاح واحدة ، فمرحبا بالشرطة في أي وقت.
ـــ ولكنه عرف بذهابك للجبل !.

ـــ ومن في جرجاوة لا يذهب للجبل ، الأطفال والنساء والشباب يذهبون، إما للمقابر أو للعب .. كنت أقرأ الفاتحة لأمي.
لمح نظرة إعجاب مفرطة في عيني والده فاستغلها وأردف قائلا:
ـــ غدا سنذهب للمحامي ، لا مجال ولا سبب للتأجيل.
هزّ رأسه موافقا
التفت صابر إلي السلم فرأي عثمان وعلا نازلين فقال:
ـــ أهلا بالعروسين أهلا
لم تكن نبرته مريحة ، لذا نظر له الأب نظرة ناهية أن يتكلم مع عثمان في موضوع السلاح خصوصا في حضور علا
ـــ مساء الخير.
ـــ مساء النور يا عثمان.
رد عليه والده وعينيه معلقة بصابر تحذره ، لكنه لم يهتم وقال لعثمان:
ـــ يريد حماك أن يسجن والدك وأخوك لأنهما شرفاك في فرحك !.
ارتبك الوالد ، ونظر إليه مشمئزا فبادر قائلا:
ـــ لا تهول الأمور يا صابر ، ليس له من الأمر شيء.
نظر العروسان لبعضهما ، ثم تناسي وجودها بجواره وقال:
ـــ ماذا تقصد يا صابر
ـــ يتهمنا بحيازة سلاح (ميري) مسروق ، وغدا على الأكثر ستشرفنا الشرطة للتفتيش بحثا عن السلاح الذي كان في الفرح .
ثم قام لينصرف وهو يقول:
ـــ هذه هي هديته في صبيحة زفافك ، نسب آخر زمن ..!

لم يستمع إلي باقي القصة ، فقام على فوره متجها إلي شيخ البلد ، استبقاه والده لكنه لم يستمع لقوله ، فقط حذر علا قائلا:
ـــ ربما تكون هذه ليلتك الأخيرة في هذا البيت.

قامت إلي الطابق الأعلى منهارة بدموعها ، فقابلها صابر نازلا والذي كان متواريا خلف إحدى الستائر يتصنت
ـــ مالك يا علا ، خير ، لماذا تبكين !!
ـــ لعنة الله عليك من ابن عاق ، ستفسد زواج أخيك
قالها الوالد وهو يقف في بهو الدار ويشير نحوه بعصاه وهو نازل على السلم ، فرد صابر بغضب:
ـــ كان لا بد أن يعرف عن نسيبه ما يحيكه لنا من مصائب ، الموضوع انتهي.

وصل عثمان إلي بيت شيخ البلد غاضبا متغير الوجه ، قابله حمدان فرحب به وعلت وجهه علامة استفهام تتساءل عن سر حضوره ولم يمض على زواجه أسبوع.

ـــ أين شيخ البلد ؟
أجابت الأم التي خرجت من مطبخها متفاجئة بوجوده
ـــ عثمان ! خير يا ابني علا بخير ؟.
خرج شيخ البلد من غرفته بالطابق الأرضي وهو يرتدي غطاء رأسه
ـــ أهلا وسهلا يا عثمان ، تفضل.
قالها الرجل مبتسما كعادته .. فجلسوا ، وطلب من زوجته شاي.
قال حمدان:
ـــ خير يا عثمان ؟
توجه عثمان بحديثه لشيخ البلد ونفسه لم تهدأ بعد
ـــ صحيح أنك أبلغت عنا الشرطة وستأتي غدا لانتهاك البيت والقبض على والدي وصابر.
قال حمدان:

ـــ أشم رائحة صابر .
ـــ حمدان ..
قالها الوالد محذرا أن يتمادي في لهجته تلك في مخاطبة عثمان ، فآثر السلامة وقام ، إذ أنه لا يملك الحديث عن صابر بتجمل لما علمه مؤخرا عن علاقاته المشبوهة بعبد الجليل والجبل وما يفعل بالقاهرة.
ابتسم شيخ البلد في وجه عثمان يتلمح هذا الرجل الذي يتعرف عليه من جديد وكأنه لا يعرفه.

ـــ لم أكن أعرف أنك شديد الغضب يا عثمان.
ـــ إنهما أبي وأخي.
ـــ وأنا لم أمد يدي لهما بسوء لخاطرك عندي.
ـــ كيف والشرطة ستداهم البيت غدا للتفتيش عن السلاح ، ألم تضرب هذه الطلقات بهذا السلاح في فرح ابنتك !!
ـــ وفرح ابني أيضا ، ألست كوالدك !
ـــ والدي سيسجن عما قريب بسببك.

يعزّ عليه أن ينطق بهذا الكلام ، فهو بين والده وبين هذا الرجل ـــ حماه ـــ الذي يحبه حبا صادقا ، حتي أنه في فورة غضبه تلك خرجت الكلمات متزنة في حضرته ، وإن كانت لم تخل من ألسنة الغضب.
ـــ لن تداهم الشرطة بيتك غدا ولا بعد غد ، ولن يسجن أخيك ولا أبوك.
ـــ كيف ، صابر أخبرني ..
قاطعه مبتسما:
ـــ أرجو أن تكتمل رجولتك مبكرا ، إن لم أكن كأبيك فاستمع لي لفارق العمر بيننا ، المرء لا تتم رجولته إلا إذا سمع الخبر بأذني عقله ، وليس بأذني نفسه الطائشة.

استبهمت عليه كلماته ، لكنه تركها للزمن يفسرها له ، وأحضرت زوجته الشاي وهي تقول:
ـــ كيف حال علا معك يا عثمان.
ـــ بخير الحمد لله .. تسلم عليك.

نظر إليها شيخ البلد نظرة آمرة بالانصراف فانصرفت ، ثم ناوله كوب الشاي وقال:
ـــ كان من المفترض أن تهاجم الشرطة بيتكم منذ يوم الفرح ، لكنهم تأخروا لمكانتكم عندي ومكانتي عندهم. ما يهم الشرطة هو السلاح أولا ، إذا حصلوا عليه ربما يمكنني وقتها إقناعهم بأي شيء لصرفهم عنكم ، ولو بتوجيه الأنظار تجاه الجبل.
ـــ ولكن السلاح لم يكن ملكنا فكيف نحضره.
ـــ طبعا لن تستطيعوا فالسلاح أتي به أخوك من الجبل ، لذا تكلفت أنا بالأمر وأنهيته مع الشرطة.
ـــ أنهيته !!
ـــ نعم ، ولا تسأل كيف.
ـــ كيف ؟
قالها بإصرار ، فابتسم الرجل وقال:
ـــ اشتريت ما طلبوه من سلاح وسلّمته لهم وأبعدت الشبهة عنكم ، أنت تعلم أن تجارة السلاح منتشرة في القري المجاورة ، ورغم غلائها اشتريتها حتي لا تطأ أقدام الشرطة فرش بيتكم.

اكتفي عثمان بالذهول ، ولم يحضر بذهنه كلاما ، فناوله الرجل كوب الشاي قائلا:
ـــ اشرب الشاي كي لا يبرد.

١٥

ـــ أثبت بالفعل أنه رجل نبيل ، ويقدر النسب والعشرة القديمة.
لم ترق لصابر كلمات والده المادحة لشيخ البلد ، بل زادته حنقا نفثه في النار الموقدة وهو يشعل له بعض الفحم بجوار العريش في الحقل .
فأردف الرجل قائلا:
ـــ أراك غاضبا لموقف شيخ البلد
ـــ لا أحب من أحد إسداء الجميل مهما كانت الشدة ، وخصوصا هذا الرجل ..
وضع بعض الفحم على النرجيلة وأردف قائلا:
ـــ وعلى أية حال فهو دين في رقبتنا واجب سداده.
سكت لبرهة وقال غاضبا وهو يرمي بعض الفحم من يده بعنف:
ـــ كنا في غني عما فعل ، قسما بربي لن يحصل على مليما واحدا مما دفع.
ـــ اهدأ يا صابر ، ما أراد الرجل سوي التودد إلينا لا أكثر مراعاة لأخيك وابنته.
فقال بنفس غضبه:
ـــ لعنة الله عليه وعلى ابنته وعلي أخي.

تودد إليه قائلا:
ـــ هل انتهي تسجيل التوكيل بالشهر العقاري ؟
ـــ المحامي أخبرني أنه سينتهي غدا.
ـــ أرجو أن ترفع عني بعض الأعباء.
قالها مبتسما ، فأجابه بلهجة خبيثة:
ـــ سأرفع عنك كل عبء ، اطمئن.

مر بهما معروف خلاف أثناء عودته من سوق جرجاوة متجها لفيلا عبد العزيز سليمان ، فاستوقفه صابر وقام إليه ، لم يكن الوالد يرضي عن هذه العلاقات الغريبة التى تربط بين صابر وبعض الجهات و الأشخاص في القرية، كعلاقاته بعبد الجليل والجبل ، وعلاقته بمعروف خلاف وعبد العزيز سليمان الذي لا يعرفه أحد ، غير تردده على القاهرة بين وقت وآخر دونما سبب معقول.

ـــ عرف عبد الجليل الأزمة الأخيرة التى تعرضتم لها مع شيخ البلد بسبب السلاح ، فتأخر عنك ريثما تهدأ الأمور.
ـــ وماذا يريد عبد الجليل؟
ـــ ماذا يريد ؟!
ـــ أنت تعلم ما يريد.
ـــ إذا حضر إليك فاطلب منه أن يصبر .. سأمر عليك الليلة ، عبد العزيز باشا موجود أم غادر الى القاهرة ؟
ـــ كان موجودا حتي أمس هو وأسرته وسألني عليك فأخبرته بانشغالك بزواج أخيك ، لكن الغريب أنه تأثر وتمني لو علم بميعاد زفاف عثمان ليحضر.

ثم انصرف معروف وترك صابر شاردا في أمر عبد الجليل ورفاقه ، كان والده يتفحصه بإمعان دون أن يشعره بذلك .. يريد أن ينطق ويسأله عن شأن هذه العلاقات لكنه اكتفي بالصمت.

كانت السماء ملبدة بالغيوم ، الجو خانق حيث يصعب التنفس ، يضربه الرعد بضربات قاسية غاضبة ، وهي على وشك الإمطار علي غير عادة يوليو ، لكن لا يرجي من هيئتها أكثر من أحجار ساخطة حارقة ، ويضيّق عليه الخناق أكثر تفرده بغرفته العتيقة ، حيث لا جليس له سوي الماضي السحيق القاتم اللون ، ومسعدة أخته.
لم تنجح الصلاة يوما ــ ولا حج بيت الله الحرام ــ في تلطيف أجواء نفسه ، أو تسكين أنّات الضمير الساخطة عليه ، فالصلاة روح جديدة تبث في المرء ، لكنها لا تغفر لنا سيئاتنا مع الآخرين ..
هواء الغرفة اللطيف لم يعد كما هو ، السكينة التي كانت تغمرها منذ زمن رحلت بلا عودة ، فلحظات هجمات الضمير المتوالية على هذه الغرفة تزلزل كل شئ فيها وتحول طبائعها ، والعصف المصاحب لهجماته ينال من الذاكرة ومن كل جميل فيها ، فيتركها بسواد جدرانها بلا أثر للذة يوم عاشه ، فقط تتراءى له الحياة كصور زيتية غير واضحة المعالم .

"من يستطيع الآن أن يمد لك يدا أيها الجاحد الخائن"
طرأت أذنيه آتية من أسفل التراب من العالم الآخر فخرقتها وقام لها فزعا ، ثم صرخ فيها بأعلى صوته يسبها ويلعنها ، متوعدا بزيادة أطنان الأسمنت فوق قبرها ..

بشاعة جرمه القديم في حق أخته لم يفارقه طيلة سني عمره المديد ، كان يجاهد هذا الألم بقتل ضميره وتبرير ما حدث ، لكنه فشل ..
أين كان قلبك حينما تاجرت بها وقبضت الثمن ، ثلاثة مرات تُزوجها رغما عنها ولم تستمع إلي رغبتها يوما في عدم الزواج بعد مآسيها في تلك الزيجات التى قصتها لك بالتفصيل ، كانت كرامتها تنزف بين يديك وهي تقص عليك أن الرجال لا يرون فيها إلا جسدا للمتعة ينهشونه بأسنان

شهواتهم بلا رفق ولا رحمة ، كرامتها سحقت في تلك البيوت ولم يبق لها منها شيء ، لم تكن تشعر بوجودها في حياة أحدهم إلا على الفراش .. كانوا من فرط شهوتهم يقبلون قدمها ويلعقون أصابعها ، وعند ذهاب شهوتهم يضربونها بالنعال ، لأنها ليست أكثر من سلعة مدفوعة الثمن ، وهم قد دفعوا ثمنا باهظا ، وإذا شكيت تحججت بأنها امرأة مطلقة ولا ينبغي أن تترك المطلقة بلا زواج ما دام هناك من يرغبها ..
فاض بها الكيل منك فأشعلت النار في جسدها ..

إننا حين نؤلم غيرنا ونتسبب في جراحه ، فإننا من ينزف لا هو ، بيد أنه نزف بلا دم نشعر به يسيل على أجسادنا ، ولكنه يسيل مع الأيام ، حينما تتفتت أسبابنا الواهية الضعيفة في جرحه وإيلامه.

تجمع على صوته أمام غرفته سمية وعثمان وعلا وعلى ، كان صابر آخرهم اصطفافا الذي حضر لتوه من الحقل ، فعلق قائلا:
ـــ لا تشغلوا بالكم بهواجسه ، يبدو أنه قد جن فعلا.
احتد عثمان قائلا:
ـــ لا تقل علي أبي مجنون.
وقف أمامه قابلا التحدي بعينين حمراوين قائلا وهو يشير إلي باب الغرفة
ـــ مجنون وابن مجانين.
تدخلت النساء في فض النزاع ، بينما هرول على فجأة خارج البيت خوفا من الضرب القديم ..
لم يحجز الباب الخشبي عن أذنيه شيئا مما يدور خلفه ، فزاده يأسا وقنوطا وأسقط في يديه ، إنها الصورة المتكررة من الأيام تعود بنفس تفاصيلها المزعجة ، ونفس السيئات التي أضمرناها لغيرنا تعود إلينا كما هي بنفس ضراوتها بعدما أخذت دورتها مع الأيام والزمن.

خرج بعد ساعة إلي بهو الدار فوجدهم فرقتين ، صابر وزوجته وابنه ملتفون حول مائدة ، وعثمان وعلا وعلى الذي حضر وآثر الجلوس بين عثمان وزوجته على مائدة ، وقف مليا أمام هذا المنظر الذي شق صدره نصفين ..
لم تدعه مسعدة في كآبته من هذا المنظر دون أن تسأله بسخريتها المعتادة وضحكتها المجلجلة قائلة: **"تري إلي أي المائدتين ستجلس"**

تأفف لصوتها ولم ينطق ، اكتفي بالنظر لهم وهم قياما بين يديه عدا صابر ..
قال بغضب:
ـــ لماذا لم تقم مثلهم ، ألا تحترم شيبة أبيك ؟
ثم دارت عينيه بين المائدتين وأردف قائلا:
ـــ لعنة الله عليكم ، تفرقتم وأنتم في بيت واحد ؟
ـــ قدمي تؤلمني من العمل بالحقل ، قل لهذا المخنث ينزل الحقل معي أو يرعي مزارعك ، وكفاك أنت تفرقة.
نظر عثمان لوالده فسكت على إهانة أخيه لما رأي من إجهاد وإعياء مفرط على وجهه

ـــ كل يوم أتفاجأ بك أيها الملعون.
قام صابر غاضبا تدور عينيه الحمراوين في محجريهما
ـــ أحفظ لسانك.
بهت جمعهم للهجته ، فسبه عثمان وهم بالشجار معه فأمسك سكينا على المائدة وقال:
ـــ خطوة واحدة وسأقتلك يا ابن الكلب.

سقط الوالد مغشيا عليه بعدما قال صارخا لصابر في غضبة لم ير في مثلها: يا كلب يا ملعون. فجري إليه جمعهم سوي صابر الذي ترك البيت متوجها إلي معروف خلاف حيث معادهما المتفق عليه.

*****

وصل الخبر إلي بيت شيخ البلد ، فما لبث أن جاء وأسرته يؤازرون الرجل في محنته وشدته.
جلست سمية على إحدى الكراسي غارقة في دمعها ، ولم يختلف حالها عن علا الجالسة على درج السلم ينهمر دمعها السّيّال ، يجاورها على ولم يختلف عن حالها.
بينما كان عثمان مع الطبيب بالداخل وهو يفحص والده ، كان منكبا علي اختبار شقه الأيسر ، يتكلم معه فلا يرد ، ويسأله فلا يجيب.

أين هو الآن ممّا أراد إقصائي من الغرفة يوم مرض والدنا آخر مرة ، و أراد أن يبدو لأبي وللناس أنه الأكثر حبا وودا ووفاء مني .. أوصل الجحود إلي هذا الحد أن لا يرفع والده عن الأرض ..

ـــ ماذا حدث يا عثمان ، اللهم سلّم.
التفت عثمان إلى شيخ البلد وأسرته ، كانت أم علا باكية تضع طرف شالها على وجهها حتي تكتم صوت نشيجها القاهر ، بينما وقف حمدان وحسن ملبدين بحزن قاتم.
تخلفت فريدة ـــ وابنها ـــ عن الحضور ، ربما لن تطأ قدمها هذه البيت ثانية ، كما قالت لها أم علا بعد رجوعهم إلي البيت: مهما كانت الظروف والدواعي ، لن تذهبي ثانية إلي هذه الدار ، فالأمر ليس هينا ولا يسيرا ،

فلئن علم حمدان أو شيخ البلد بما تقولين فلن تكون هناك لغة سوي الدم في التعامل مع هذا الكلب .

قام الطبيب فانصرفوا خلفه ووقف مع عثمان وشيخ البلد قبل الباب يحدثهما:
ـــ أكان الشيخ يعاني من ارتفاع الكوليسترول ، أو يفرط في التدخين ؟
أجابه عثمان:
ـــ لا أعرف شيئا عن الكوليسترول ، ولكنه مدخن شره للنرجيلة.

تنهد الطبيب وهو يكتب (روشتة) أدوية مستندا على منضدة مرتفعة بجوار الباب
ـــ تعرض لغضب شديد ؟
زاغت عين عثمان عن الطبيب وقال بأسي:
ـــ كان غضبا عارما لم ير مثله.
أعطاه الروشته وهو يقول:
ـــ يؤسفني أن أقول إن والدك أصيب بشلل نصفي نتيجة لارتفاع ضغط الدم المفاجئ والتدخين وغيره ، حافظ على تناوله للعلاج ، وأبعدوه عن أي انفعال أو أخبار مزعجة ، وسنبدأ بسرعة في العلاج الطبيعي .

تجمدت الكلمات على شفتيه ولم يستطع قولا ، فاصطحب شيخ البلد الطبيب إلي الخارج وعاد إليه فوجده يجلس منهارا على الدرجة التي تفصل بين صالة البيت وشقها الخلفي مطأطئ الرأس ، فرفعه من ذراعه وقال:
ـــ أرفع رأسك ، فالشدائد تطلب الرجال.
ودخلا إلي الرجل ووقفا عليه ، كان كالنائم إلا أنه لم يزل لسانه يلهج بأربعة أسماء فقط: مسعدة ، رمضان ، صابر ، عثمان .

لم تستطع عيني عثمان الاحتفاظ بدمعها وقتا طويلا ، بل أذنت له رقة قلبه بأن يرسل الدمع من عينيه زخات ، فاقتاده شيخ البلد للخارج حتي يدعا الرجل يستريح.

*****

كانت الجلسة رائقة مقمرة ، ترطب النسيم حولها وهفت أوراق الشجر ، وزينها صوت خرير الماء في الجدول الصغير الذي يطوق الفيلا والمار أمام غرفة معروف خلاف ، وترامي ضوء النار الصغيرة أمامهما حتي رفهما بلون أصفر يتحرك على وجهيهما مع النسيم الليلي البديع. اضطجع صابر على ذراعه الأيمن منتشيا لما أنجزه خلال الأيام الماضية ولما دخن من حشيش في جلسته.

ـــ تعرف يا خلاف ما ينقص جلستنا هذه ؟
ضحك لفهمه ما يقصد قوله
ـــ لا تشبع من النساء أيها الزير
ـــ ومن يشبع من الزهور الندية أيها المسطول ، ياااه .. كانت آخر امرأة في القاهرة لا تعوض ، لم أقرب مثلها في رحلاتي للمحروسة من قبل!

قطع عليه استرساله وهو يمد يده بكوب الشاي قائلا:
ـــ اشرب الشاي.
ـــ شاي! آه يا زمن ، في القاهرة كنّا نشرب مما لذ وطاب من الخمور المستوردة وسط باقة من النساء اللواتي تضيء لوامع أثدائهن العارية ظلمات الليل وتبدده ، أما هاهنا فشاي وخلاف .. يال المسخرة .
وأتبعها بضحكة مجلجلة شاركه فيها معروف ، ثم قال له:

ـــ ربما ستتزوج لتجدد الفراش إذن.

ـــ لا أحتاج تجديد الفراش بالزواج يا مغفل .. حتي لا تكسد بضاعة بنات الليل.
انتهي منها بضحكة كسابقتها ، وتناول خرطوم النرجيلة من يد معروف وتنفسها .

ـــ ماذا ستفعل مع عبد الجليل ، الرجل لا يصبر.
كان هذا الاسم يزعجه قبل أيام إذا ذكر أمامه ، لكنه رد بارتياح
ـــ أخبره إذا رأيته أن نقوده ونقود من معه ستكون في يده خلال أيام وزيادة.
ـــ فعلتها ؟
ـــ وزيادة.
قالها ضاحكا وهو ينفث دخان الحشيش ـــ ماطا شفتيه ـــ نحو السماء.
ـــ لا أدري ما هي علاقتك بالجبل ولماذا تصر على اتصالك الدائم بعبد الجليل .. الجبل غدّار يا صاحبي.
ـــ اطمئن يا صاحبي ، الجبل يغدر بأعدائه ، أما أسياده فلا يجرؤ عليهم
ـــ وأنت من أسياده ؟

انتبه صابر لجري الحديث فتوقف ، ثم قال:
ـــ تصور إلي الآن لم أجلس مع عبد العزيز باشا ، ولا أدري لما تضن على بالجلوس معه.
ـــ أنت دائما مشغول يا صابر ، إما بصراعاتك ومعاركك التى لا تنتهي ، وإما بالجبل وإما بالنساء.
ضحك صابر وقال:
ـــ ذكرتني بالنساء ، ما أجملهن !
ـــ يبدو أنك تخوض مغامرة نسائية مقرفة مع بعض نساء جرجاوة كعادتك.

ـــ لا ، إنها صيد ثمين أوشك أن يقع.
ـــ من هي ؟
ـــ ليس الآن ، أخبرني ، هل عبد العزيز باشا مثلنا.
ـــ إنه رجل صالح أيها الفاسد.
ـــ ولم لم تنهل من صلاحه.
ـــ لأنك نديمي يا جاهل.

لم تنقطع الضحكات عنهما طيلة وقتهما ، وتشتت الحديث بينهما فنال كل شيء ، لكن صابر كان أحكم للسانه حتي في سكره ، ولما سأله بإلحاح أن يذكر له ما يعرفه عن عبد العزيز باشا ، أخبره أنه تاجر كبير من تجار الملابس المستوردة في بور سعيد وهو مقيم بها ، وليس بالقاهرة كما يظن .
لكن لماذا يأتي من بورسعيد إلي جرجاوة ، تلك الأرض القفر ، فلم يكن من رد سوي: النصيب ، وحتى يرزق من حراسة الفيلا.

*****

أمر شيخ البلد أحد خفراءه بالذهاب إلي مستشفي المركز لإحضار كرسي متحرك ، ومع صعوبة ذلك إلا أن شيخ البلد أخبر خفيره أنه لن يقبل منه عذرا مهما كان حال عودته بغير الكرسي.
كان الوالد لا يزال في صمته ، لا يُعرف له نوم من يقظة ، ولا يند عنه صوت سوي أنات مجهدة تخرج مع كل اسم ينطقه من الأسماء الأربعة ، حاول عثمان أكثر من مرة لشفقته عليه أن يوقظه لكنه فشل ، فقد كان سباته العميق في ماضيه السحيق الذي تعرضه عليه ذاكرته المختلة أبعد من أن تطوله يد فتنتشله منه.
كانت علا وأمها وسمية بجواره ريثما يستيقظ ، ونام خليفة الصغير على أريكة بصالة البيت ، بينما جلس الآخرون أسفل النافذة الحديدية.

ـــ من رمضان هذا الذي يردد اسمه ، يقصد عمّي ؟
قال شيخ البلد:
ـــ أظن ذلك.
ـــ لماذا يذكره الآن مع عمتي ؟ رحمهما الله.
تغير وجه شيخ البلد كأنما يعرف شيئا ويسكت عليه ..
ـــ كيف كان عمي ، بعضهم قال لي أنني أشبهه.
ـــ نعم أنت أقرب الناس شبها به.
ـــ كيف مات وما كانت سيرته ؟
ضاق صدر شيخ البلد بحديث الموت عن عمّه فقال وكأنما يلقي عن كاهله حملا:
ـــ من قال أن عمك مات ، عمك مفقود ولم تصلنا جثة له.
ذهل الحاضرون من مقاله ، وتطلعت عيونهم إلي شيخ البلد ، فقال لعيونهم الحائرة:
ـــ هذه هي الحقيقة ولا حقيقة غيرها ، لكن مع قدم العهد بعمك ، وحيث انقطاع الخبر منذ رحل عن جرجاوة قال الناس أنه قد مات وكان أبوك أول القائلين.

سأل شيخ البلد عن الرحيل بلم ومتى وكيف ، أراد أن يعرف عن عمه الكثير ، لكنه لم يجد سوي سكوت شيخ البلد ، وتلهّي في رد مواساة حمدان وحسن ..
وظل فكره مشغولا ومشتتا بين أبوه وعمه المفقود ، وخيم السكون على البيت ، لا تند عنه همسة سوي أنات الرجل وتوجعه.

دلف صابر إلي البيت يتمايل في مشيته كسفعة نخلة ، لن تذهب عنه نشوة سكره لآخر يوم في حياته ، ليس من الحشيش ، ولكن لأسباب أخري.

تفاجأ بوجود شيخ البلد وأبناءه ، فتجاهلهم ونادي بصوته المرتفع على زوجته فخرجت فأمرها بحمل الولد ليصعدوا إلي شقتهم ، فقالت غاضبة في وجهه:

ـــ ألا تلقي نظرة علي والدك المريض ؟
فسبها بشتائم عدة كان آخرها أن قال:
ـــ احملي الولد يا بنت الأجري واخرسي .

أسف شيخ البلد لما يسمع ، فقال:
ـــ عيب يا صابر زوجتك لم تخطئ ، إنه والدك ويجب أن تطمئن عليه.
ـــ أنت مالك !.
خرجت علا وأمها علي الصوت فنظر إليهم وندت عنه ضحكة ساخرة ثم قال هازئا:
ـــ احتللتم البيت إذن.
قام إليه عثمان غاضبا وهم بضربه ، لكن حمدان حال دون وصوله إليه ، فسبه ولعنه بما يستحق لجحوده وعقوقه ونكرانه للجميل.

قال حسن:
ـــ لا وجود لنا هنا بعد الآن.
أشار له صابر بسبابته قائلا:
ـــ أحسنت !.
فأردف حسن قائلا:
ـــ وما قلته ستحاسب عليه بعد ، وهذه الإهانة لن نسكت عليها
رفع حاجبيه وابتسم ساخرا ولم يرد
فقال حمدان وهو يجذب علا معه:
ـــ سنذهب ولن تبقي هنا بعد اليوم يوما واحد .

ضحك صابر بشدة ساخرا من أخيه ، فقال حمدان لعثمان:
ــ أيا كان ما يدور في ذهنك الآن ، فهذا المكان لم يعد آمنا.
ــ إن خرجت فهي طالق !.
زادت ضحكته الخبيثة فكانت كصوت البوق المتقطع ، واستدار فوجد زوجته كما هي واقفة
ــ لا زلت واقفة يا بنت الكلب.
ــ لولا أن أبوك مريض لرددت عليك ، ولكن حسبي الله ونعم الوكيل ، انتظر يا شيخ البلد فلا مكان لي هنا.
فقال باستهانة:
ــ أنت طالق يا بنت الأجري.
ــ الأجري أشرف منك يا تاجر السلاح والمخدرات.

فهجم عليها ليضربها فأوقفه حسن وحمدان ودفعاه بعنف ، وحسن يقول:
ــ لم تعد لك بعد الآن .. ولقاؤنا قريب
كانت علا وأمها ينظران إلي عثمان الذي جلس على كرسيه مثقل الرأس كالسكران ، أخذته الدهشة فلم يدر بما هو فيه ، وتعقد لسان الأم فلم يستجب لإرادتها في الدعاء عليه فتحركت شفتاها بلا صوت: حسبي الله ونعم الوكيل فيك.

خرجوا ، كانت علا أثقلهم قدما ، وقفت أمامه تبكي وتقول بصوت مبحوح:
ــ عثمان !.
لكنه لم يرفع رأسا ، فجذبها حمدان بعنف فتوجعت وخرجوا جميعا ، وبقيا بمفردهما وجها لوجه ، فقال ضاربا كفا بكف:

ـــ سبحان مغير الأحوال ، لم أعد أنا زوج بنت الأجري ، ولم تعد أنت زوج بنت شيخ البلد ، هأهأهأ ، ولم يمض على زواجك شهر! ، هأهأهأ ، وأخذت منك زوجتك! ، هأهأهأ ... يال العار.

حمل ابنه وصعد به ، كانت السكين تلتمع في عيني عثمان ، تناديه ، تقول أنا له ، أنا لظهره أو صدره ، لكنه فرق عينيه بشدة وظل يطرق رأسه بقبضتيه عدة ضربات متوالية .

تقلب علي في نومه على الأريكة بالفرندة فقام إليه عثمان فأيقظه ، فقام يفرك عينيه ، وسأله عن صهره وأهله ، فأخبره برحيلهم ، ثم أمره بالذهاب لفراشة ، فاعترض وقال: إنه سينام على الكنبة في غرفة والده ، حتي لا يترك عثمان زوجته بمفردها ، فوافق عثمان دونما أن يخبره بما حدث من أمر علا وأهلها حتي لا يرهق قلبه الصغير بهموم جسام.
اصطحب علي الكرسي المتحرك الذي أحضره الخفير وقت الملاسنة فوضعه وانصرف ، ودخل به الغرفة ثم ألقي بجسده المنهك على الكنبة ، ولا يزال لسان والده الثقيل يخرف بتلك الأسماء الأربعة والتي لا يعرف سر الارتباط بينها ، ولا سر عدم ذكر اسمه معهم.

*****

أوشك طلوع الفجر ، وأخذ الليل في الانسحاب لمكان آخر ، مفسحا مكانه لضوء النهار ، ولم يزل عثمان مستلقيا على ظهره فوق سريره بمفرده يقلب النظر في السقف وأثاث الغرفة ..

ما أتعس الدنيا وطبيعتها في قلب من يمضي في سجيتها منقادا بخطام أحلامه وأوهامه ، إذ انه يتنقل بين فصولها الأربع كما يتنقل التعيس بين الهم والغم والحزن والألم.

وكأن الطبيعة ترتسم في نفسه بهذه الفصول ، فكأنه قد وضع فيه أربعة قلوب لا قلب واحد ، ثم لا يصفو له إحداها ، فيمر به اليوم ليس كغيره من ذوي القلوب الهادئة الفارغة ، فتراه قد أشرق وجهه وتهلل وعلته نضارة وبهاء ، ثم تلبد كأنما ينتعل قطعتين من الجليد فهو متلبد جامد جمود الثلج.

ثم يبدو قد اتخذ الاصفرار في وجهه سبل متعرجة ، فشحب لونه وبهت ، كأنه شجرة نبتت بأحضان الخريف وأينعت في ظله فأخذت عنه معاني الضعف والألم.

ثم يبزغ حارا ملتهبا مشتعلا وقادا ، وكأنه ـ لحينه ـ خارجا من أتون متأجج، فتخرج كلماته فيها معني النار واللهب.

وصاحب هذا القلب إنما تمضي أيامه وكأنه عصفور يتقلّي ، أو كطفل صغير لا يملك الصراخ بين يدي جلف أوشك بفتكه.

تحسس الفراش بيده ، ثم قبضه وأرسله برفق ، وتطلع إلي التسريحة وأدوات زينتها ..

ليس أصعب من عذاب من أخرج من الجحيم ليري النعيم برهة ثم يرد إليه مرة أخري ، ليت الأيام ظلت بوجهها القديم القاتم ، ليت السماء لم تمطر ، ليت يوليو ظل على قيظه وناره مغلقا قبضته على مسام السحاب !.

معذور حمدان ، كيف يأمن على ملاك في بيت يقوده شيطان مريد !.

أحاسيس مرتبكة طائشة تعبث بنفسه وتُغير ما بداخله ، ربما يصبح إنسانا آخر ، عثمان جديد لو نظر لهذا الـ (عثمان) لم يعرفه ، فقد تغيرت معالم الأشياء وطبائعها ، فليس غريبا أن يناله رذاذ التغيير .
تحول نظره تجاه المزهرية البلاستيك ، فندت عن شفتيه ابتسامة ساخرة ، أزهار يانعة لا تشيب ولا تذبل ، لأنها ليست حقيقية ، كذلك الوهم يظل قابعا في النفس لا يبرح ، متربعا على آفاق العقل طول العمر لا يتزحزح لأنه وهم لا يمكن وصوله إلي خط الحقيقة ، فما أجهل الناس يستعيضون الأزهار وعبيرها بمنظر خادع لأنه دائم.
كذلك نحن ، لسنا أكثر من أزهار بلاستيكية ، نظهر لبعضنا دوما في ثوبنا البلاستيكي ، ولا نستطيع الظهور ــ بعض الوقت ــ بعبق الورد الطبيعي وعبيره ومنظره لثقله على النفس ، أو لطبيعة النفاق المتأصلة بداخلنا.
ربما لو أجمعت عزمي فيما مضي ومضيت إلي القاهرة ، لم يكن مما كان شيء، ولتحقق الحلم ، وظلت الأمور كما هي ..
"إما أن تنس الجامعة أو تظل مريض الأمل في وضعك الجديد"
لم أنس الجامعة يوما يا حماد ، وأصبحت يا صديقي ليس مريض الأمل فقط ، بل مريض الحقيقة أيضا.
كيف لو رأيتني الآن !.
تنهد بأسي وفرك وجهه بيده ، يشكو لنفسه أحمالها التي لم يعد يطيقها ، ولم تعد له طاقة لاحتمال ضربات القدر الجديدة ..
مجبرون دائما أن نحمل هموم غيرنا ، فمن يحمل عنّا همومنا !
وتوالت الذكريات بكل ألم ، لتلتئم بجراحها مع جراح الليلة النازفة ، طلاق زوجته التى لا يدري أأحبها أم سحر أنوثتها جذب روحه وخياله ، ومرض والده ، والشر المستطير الذي أبدي ناجذيه له من أخيه ..

إنها لحظات متكررة في تاريخ هذا القلب الرقيق ، الذي ينفذ فيه الأسي كمنجل جلف في أعواد الربيع المتمايلة الرقيقة ، فتأتي هذه اللحظات فتُحمّل القلب هموما لو حملتها الجبال لناءت ، ولو وُضعت بين أروقة النهار لاستحال ليلا أسودا ، ثم تكتحل العين الحزن والألم ، وأصعب ما في الحزن أنه يُفقد كل شيء معناه ، ويَنْزع من كل جميل فحواه ، فكل جميل وقت الحزن ــ مهما اعتبره الناس جميلا ــ فهو عند القلب الحزين خاو على عرشه ، وعلي أعتاب الروح أطلال بائسة ليس فيها إلا الذكري.

وهذه اللحظات الحزينة التى تسدد للقلب هي تفسير لمعني الموت يموته الإنسان ولا يزال فيه عين تري وجوارح تتحرك.

بيد أنه بقلب ساكن لا يشعر ، إذ أن الحزن أفقده شعوره بكل جميل ، فلا يصل إليه من دورة الأرض سوي الليل الأسود الكئيب ، ولا يصله من الطبيعة سوي الأشواك والجفاف والقحط.

١٦

استيقظ عثمان في الثامنة صباحا على صوت علي وهو يصرخ بصوت مرتفع يستغيث بوالده وبعثمان ، فانتفض من رقدته ونزل مسرعا إلي أسفل فوجد صابر جاثيا على أخيه الصغير ، واضعا ركبتيه على ذراعيه المفرودتين على الأرض وتتوالي صفعاته على وجهه بعنف .. حتي دمي فمه وسال على شدقيه. ركله عثمان بقدمه في صدره فصرعه أرضا ، وأقام علي ومسح الدم عن فمه بطرف ثوبه ، ثم أمسك حديدة ولوح بها في الهواء

ـــ أقسم بالله يا ابن مائة كلب لو تعديت حدودك معي أو معه ، أنا من سيقتلك غير آسف عليك !.

قام صابر ينفض ملابسه ويضحك بسخريته اللاذعة من أخويه ولم يزد علي قوله وهو ينصرف:

ـــ ستتمنى أن لو قطعت رجلك عقابا لها على ما فعلت ، أنا ذاهب للمحامي، لأضع لهذا العبث حدا .

ذهل عثمان من رد فعله ، فتسمر وهو يمسك الحديدة بكلتا يديه ..

ـــ ألم أقل لك يا عثمان إنه يريد أن يقتلني ، ألم أقل لك يا عثمان ، ألم أقل لك ولم تصدقني ، ها هو أوشك هذه المرة على قتلي لولا وجودك ، فماذا لو لم تكن موجود .

لا يزال الصغير يتنفس الصعداء ـ وهو ممسك ببطنه ـ من وطأته عليها ، ومن الضرب على السواء ، فقد سبق لطم الوجه لكمات في رأسه وبطنه.

ـــ لا تخف يا علي لن يجرؤ على قتلك ، أو إيذائك .

ـــ وماذا كان يفعل يا عثمان ؟! أخوك ـ ولا أدري إن كان أخانا أم لا ـــ عازم على قتلي ، ولا أدري السبب. أجلسه عثمان برفق علي درج السلم

ـــ ماذا فعلت له ؟

ـــ لا شيء ، أمرني بتحضير إفطار له فأعددته فلم يعجبه ، فسبني بأبي وأمي فسببته دون أبوي ، ففعل ما فعل .

ـــ سينتهي هذا الهم قريبا ، اصبر .

ـــ لا صبر لي ، ما عدت أحتمل ضربه وسبّه

تطلع عثمان بنظرة فاحصة لعيني أخيه الصغير كأنما يقرأ ما وارته خلف الكلام

ـــ ماذا تقصد ؟

فقال شاردا:

ـــ لا شيء .

قام عثمان مسرعا نحو غرفة والده كأنما تذكر الاطمئنان عليه ، دخل علي على أثره ووقف بجانبه ، كان لونه شاحبا ، وشفتاه يابسة .

ـــ كيف كانت ليلته ؟

ـــ لم ينقطع أنينه وتوجعه ، إلا أنه توجع نابع عن حزن وليس عن ألم ، ولم يزد على قوله : مسعدة ، رمضان ، صابر ، عثمان.

تمتم قائلا: رمضان.

اقترب منه أكثر ومد يده أسفل رأسه

ـــ رقد أكثر من اللازم (وتابع بتأثر شديد) ، كان في هذا الوقت يتناول إفطاره بين الفلاحين بالحقل .. قرّب الكرسي يا علي وساعدني .

ـــ ألا توقظه أولا ؟

ـــ هو مستيقظ .. أشعر به .

تعاون معه حتى أقعداه على الكرسي ، فتح على باب الغرفة على مصراعيه وخرجوا للصالة وقام على بفتح كل الأبواب والنوافذ حتي يتبدل الهواء وتدب الحياة في البيت ، فذلك أقرب لشفاء الرجل. دفعه عثمان نحو الحمام فغسل له وجهه وخرج به حتى أوقفه قبالة الباب ، ليكون الطريق في مرمى عينيه ، حاول عثمان الحديث معه بكل الطرق لكنه لم يفلح في إخراج كلمة واحدة من فم والده المعوج ، ولا يدري أسمع كلامه أم لا ، فكانت الصدمة مدوية في أرجاء نفسه الضعيفة فألقته على الكرسي القريب دونما كلمة ، ثم أفاق سريعا ، حيث عينا علي تتابع وجه عثمان بدقة ، كان وجهه غارقا في دمعه أسفا لما حدث ويحدث. فتأثر علي أكثر بحالة عثمان فارتمى في حضن والده باكيا أشد ما يكون البكاء ، وهو يردد قوله: أبي. فتحركت يد الرجل اليمنى ـــ حيث الشلل في النصف الأيسر ـــ والتي فقد فيها الثقة هي الأخرى ، لكنها طاوعته فربت بها على ظهر الصغير. رنّت طرقات قدمه علي الأرض فتطلعوا إليه ، كان وجهه يفيض بالبشر والفرح ، سحب على يده من حول عنق والده وقام فاحتمى بعثمان خشية أن يفتك به كما فعل صباحا ، نظر إليه صابر نظرة أخافته ، كأنما سمع من أشفاره رعدة تنطق: لن يحميك أحد في هذا البيت. فجرى بكل قوته خارج البيت فتبعه عثمان يستوقفه لكنه لم يقف وفرّ هاربا ، فرجع آسفا إلي جوار والده .

ـــ ليتني أعرف ما الذي يدعوك لما تفعل ، لم هذه الوحشية المميتة مع أخيك الصغير ، وتعاملك السيئ معي كأنني عدوك ، وتنكرك لوالدك ، كيف لم يلن قلبك لهذا المنظر المؤلم الذي أصبح فيه أبوك بسببك ؟.

ـــ لا تهول الأمور أيها المخنث ، فالأمر ليس أكثر من اختلاف في وجهات النظر .

ـــ العاطفة التى تربط بين الولد وأبوه ليست وجهة نظر !!.

ـــ أنت لا تفهم ..

أخرج علبة سجائره وأشعل واحدة في تؤدة ثم جلس مادا قدميه على المنضدة الصغيرة واستطرد قائلا:

ـــ اختلاف وجهات النظر في الحياة وليس العواطف أيها الرومانسي المخنث.

تجرع إهانتة وسكت أشاح بنظره تجاه والده وأردف قائلا:

ـــ ألا تعلم أن الحب والكره يتوارثان .. ينقل في الجينات كغيره مما نبتلى به من أغبيائنا السالفين .

أطفأ سيجارته وصعد للطابق الأعلى فأيقظ ابنه من النوم ليرسله لأمه ، ثم خرج عثمان إلي محل بقالة قريب ليشتري بعض الأطعمة المعلبة ، ولما نزل صابر تلفت عليه فلم يجده ، فأنزل ابنه من فوق كتفه وجر كرسيا وجلس مقابل والده

ـــ ربما يكون فمك المعوج ولسانك المشلول يلعناني الآن ولكن لا يهم ، يجب أن تفخر بي يا همام ، فأنا أحقق لك حلمك الذي استعصى عليك طوال عمرك ، ألم تطلب المجد من كل باب حتى انتهيت إلي شيخ البلد

وصاهرته ؟ ، ورجوت القوة فلم تنلها إلا بالتزلف المهين له ، وأحببت جمع المال فاغتصبته من سعدية ورمضان. لا تظن أنني لا أعرف شيئا عن رمضان وما فعلته معه ، ثم غرستني في الطين وجعلتني عتبة يطأها ابنك المخنث ولم تقف بجانبي لأكمل دراستي كغيري من أبناء جرجاوة ، وبعد ذلك تريد أن تبقيني أسير الأرض والطين أقوم وزوجتي على خدمته وزوجه ، هه . الآن ليس هناك زوجات في هذا البيت ، فقد طلقت سمية وهو طلق ابنة (شيخ البلد). اسمع ، ابقوا بهذا البيت ما شئتم ، لكن لا أسمع لكم صوتا ولا همسا وإلا فالشارع بانتظاركم ، فقد انتقل كل ما تملك لي بفعل التوكيل ، وسجلت ممتلكاتك في الشهر العقاري باسمي ، فقل للمخنث يحفظ حدوده فأنتم ضيوفي ، وانصحه بالنزول للحقل للعمل حتى أسمح لكم بالطعام في بيتي.

قابله عثمان عند دخوله ، كانت ابتسامته تضيء وجهه كمنهزم ظفر أخيرا بالنصر وضُمدت جراحه ، فوقف عثمان أمامه لبرهة ينظر إليه بعينين وديعتين تستحلفانه بالأبوة والأخوة ، لكنه ترجل بطريقة نرجسية يحفه الخيلاء والتباهي. أشاح عثمان بوجهه نحو والده فوجده يبكي في صمت ، إحدى عينيه مفتوحة لا يقدر على غلقها ، وتعقد فمه أكثر مما كان عليه صباحا وانجذب لأعلى . ربت على كتفه ، واتجه نحو المطبخ يعد له بعض الطعام في أرغفة الفينو ليسهل مضغها .. أدرك ما أحدثه تواجده مع صابر بمفردهما .

١٧

أسدل الليل ستائره وعلا نجمه ، واستبد بسلطانه الأسود على كل لون في طرقات القرية فلا يرى بوجوده شيء ، حتي أعمدة الإنارة المجاهدة لظلامه لم تستطع كسر خطه الأسود لقلة أعدادها .. إلا أن فيلا عبد العزيز سليمان سفرت في هذا السواد الحالك كقمر أرضي تتلألأ في ظلام الليل ، فامتدت الأنوار بطول السور الذي يلف الفيلا ويعزلها عن القرية ، وانتشر الخفراء حولها في نوبة حراستهم الليلية أكثر من أي يوم لوجوده بها. أغلقت أضواء الحجرات في أدوار الفيلا الثلاثة ، بينما فتحت النوافذ وأسدلت ستائرها الشفافة إلا غرفة واحدة مضيئة مغلقة الزجاج تشف عما وراءها ، إنها غرفة مكتب عبد العزيز سليمان. جلس في (روب) بني اللون ، تتلألأ حواف شاربه البيضاء على ضوء مصابيح غرفة مكتبه الخافتة ، تعلو وجنتاه حمرة ، كثيف الحاجبين ، خفيف الشعر في منتصف الرأس دون الصلع ، تبدو عليه ندرة في العيش وهمّ في الحياة ، وتتعلق بأهدابه هموم إلا أنها تتوارى في المجالس بين الناس خلف قوة إرادته وشدة عزيمته .كان معروف خلاف بين يديه منكمش الجسد ، تقارب كتفاه حتي كادا أن يلتصقا ، واضعا كفيه بين رجليه لا يملأ عينيه منه ، دائم النظر إلي الأرض وهو في حضرته. استطرد معروف كلامه حيث لم يجد تعليقا ولا استفسارا من سيده عما قال آنفا

ــ هكذا يا سيدي جرجاوة كلها عجب لا يستقيم لها أمر ، كأنما تجمعت تناقضات الدنيا وبنيت منها منازل هذه القرية ، فرجالها رجال عند

المشاحنات ، ترى أحدهم غليظ الصوت كالرعد جريء النظرة كالبرق مندفع بالشر كالبركان ، أما حين يطرق بابها أحد لفعل الخير ، أو إذا ألم بها سوء من خارجها فأوجب التكاتف والتضامن ، فهم أبرد من الثلج وأعظم سكوتا من الزرافة وأودع من الخراف. يهرب منها شبابها ويتفلتون منها ، فلم يعد بها ما يبقيهم أو يعز في نفوسهم فيها ، بل كل ما فيها يدفعهم للخروج .. للهروب ، كل ما فيها يقول لهم : ارحلوا عني ، لم تعد جرجاوة كما يرويها الأجداد ، فالجبل مكتظ بالمجرمين تجار السلاح والمخدرات ، وزراعات الفلاحين مهددة بالخطر دائما لضعف الإرشاد الزراعي ، والمياه هنا مسممة بالكثير من البكتريا والفيروسات .. جرجاوة لا توجد بها حياة.

انتظر عبد العزيز باشا فلم يعلق على شيء مما قال معروف ، فهو لا يجهل منه شيئا ، حتى يصل بكلامه إلي ما يريد سماعه ، فهو قليل السؤال والكلام، ومن عادته إن أراد سماع أمر ما أن يطيل الجلسة حتي ينطق جليسه بما يخفيه إذا انقطع كلامه ولم يدر بما يتكلم ليملأ الوقت

ـــ تغيرت أخلاق القرية فاليوم ليس غريبا أن يسرق الولد أباه أو أن يضرب أمه ، أو أن يخون أخيه. منذ عدة أيام حدثت بالقرية حادثة أخلاقية مؤسفة من رجل صديق لي أسمه صابر خليفة إبراهيم ، كنت حدثتك عنه قبل ذلك يا باشا ، هذا الرجل سرق أباه جهارا نهارا بلا رأفة ولا إنسانية حتى مرض أبوه بشلل نصفي.

امتقع وجه الرجل لهذا الخبر المؤسف

ـــ كيف ؟.

ـــ صابر صديقي منذ زمن أعرفه عن قرب ، رجل يهوى المظاهر وملذات الحياة ، لا يؤثّر في قلبه غير النساء والمخدرات ، ولا يؤثر فيه سلبا إلا إحساسه بالضعف والظلم ، وكثيرا ما رأى نفسه مظلوما برأيه ...

كانت هذه هي المرة الأولي والأخيرة التى يدخل فيها معروف إلي حجرة مكتب عبد العزيز باشا ، تفاجأت عينه وهو يحدثه بصورة ملقاة على مكتبه لرجل عجوز في جلباب أسود ، فأمعن النظر فيها وكأنه يعرف صاحب الصورة

ـــ لكأنني رأيت هذا الرجل من قبل ، من هذا يا باشا

ـــ لا أظنك رأيته يا معروف ، إنه أبي رحمه الله

قال ساهما:

ـــ إنه يشبه كثيرا ..

قاطعه بغلظة:

ـــ لا يشبه أحدا هنا (ثم ملطفا من نبرته) لا يشبه أحدا في جرجاوة ، إنه أبي

ـــ العفو يا باشا العفو ، الله يرحمه ويحسن إليه .

ـــ أكمل ، ماذا فعل صابر تحديدا بوالده .

ـــ أوهمه أن يكتب له توكيلا عاما باسمه حتي يسهل عليه إدارة الأملاك حتي كتبه له ، ومع إن إدارتها لا تحتاج إلى توكيل إلا أن الحاج خليفة كان يهابه ويخشاه ، فأراد أن يكسر شوكته ويؤلف قلبه ، لكنه باع لنفسه كل ما ملك والده وحرم إخوته منه ، هذا غير أنه طلق زوجته ، وكان سببا في هروب أخيه الأصغر من البيت بلا عودة ، وتطليق عثمان لزوجته ولّما يمض

علي زواجهما أسبوعين ، وهو الآن يستعبد أخاه عثمان في الحقل ويعطيه أجرة أسبوعية يصرف منها على علاج أبيه المريض ، لقد ماتت الرحمة في قلب صابر يوم وُلِد الخوف منه في قلب أبيه ، تصور يا باشا أن وصل فجره أن ذهب إلي شيخ البلد ليطلب علا ــ زوجة عثمان ــ للزواج ! كاد حمدان أن يقتله ، فقد ظنوا أنه أتي لإصلاح ما أفسده ، وليرجع زوجة أخيه الحامل إليه ، فطردوه أشر طرده.

ــ وماذا عن صحة الحاج خليفة ؟

ــ من سيئ إلي أسوأ ، شفاه الله.

هز الرجل رأسه في أسى ولم يعلق ، كان معروف يتلمح وجهه بإمعان في نظرات خاطفة ، انتبه له فالتقت عيناهما فقال معروف مرتبكا

ــ كيف يمكن أن يكون إنسان بكل هذا الجحود والنكران ويسوّد قلبه إلي هذا الحد ، لقد شككت في أن يكون صابر ابن هذا الرجل المريض ، لا أتصور أن يفعل أحد بأبيه ما فعله صابر بالشيخ خليفة.

ــ النفس أمارة بالسوء ، وإذا تملكت قلب صاحبها وعقله وأخضعته لسلطانها أعمت فيه عين البصيرة ، فلا يرى غيرها ولا يشعر بسواها ، أما صابر وأبوه فهناك أسباب أخرى أدت لما هم فيه .

ــ أسباب أخري ؟

ــ قم يا معروف الآن ، ولا تُدخل هذا الرجل إلي الفيلا مرة أخرى ، لا ليلا ولا نهارا .

ــ تحت أمرك يا باشا .

هم بالانصراف ، فاستوقفه قائلا:

ـــ هل يتاجر صابر في السلاح أو المخدرات كما يقال ؟
ـــ لا يا باشا ، هو مجرد وسيط بين تجار من القاهرة والأقاليم وتجار الجبل لا أكثر ، هو قال لي ذلك ، لكن أهل الجبل يحبونه بشدة لتصريفه بضاعتهم من السلاح والمخدرات .

١٨

نزل من سيارته المرسيدس أمام بيت شيخ البلد وعبر البوابة الخارجية ، ووقف يتأمل البيت متكئا على عصاته السوداء في صمت ، لا تزال آثار الزينات على حوائطه العليا وأفرع الأشجار ، ولا تزال ذكرياته القديمة وإن ذبلت إلا أن رحيقها وعبقها ممتد من الزمن السحيق ، يشتمّه بأنفه في وقفته، يرى آثار قدميه الصغيرتين محفورة في هذا التراب ، ينظر من خلف الأيام إلي الفرندة فيري الأسرتين مجتمعتين في صفاء وود ، فكثيرا ما جمعتهم الزيارات ، يسمع ضحكة أمه الناعمة مع نساء البيت في الشرفة الأولى ، ويرى شموخ والده في جلبابه الأسود الفضفاض وعمامته البيضاء يجلس كالجبل الأشم ، أين هذا الجسم يوم وفاته ، لقد نحل وخف كما روي له ، لم تمحي من ذاكرته لحظات لعبه الصافية مع فؤاد وخليفة في هذه البقعة التى شكلت جزء من تاريخه قبل أن تحيد به سفينة الأيام وترسو في مكان لم يتوقعه ولم يُرِده .

كان حمدان في فراندة البيت يلاحظه ، فنهض إليه حتى وقف أمامه

ـــ أهلا وسهلا ، من أنت ؟

فابتسم قائلا:

ـــ أنت حمدان ؟

ـــ نعم ، من أنت ؟

كانت علا تطالعهما من شرفتها فنظر نحوها ، وقال:

ـــ هذه علا ؟

نظر حمدان إلى أعلى ثم نظر إليه بدهشة ، وقال

ـــ نعم هي ..

لم يجد من الرجل عزما على توضيح هويته ، فقال:

ـــ تفضل بالدخول .

دخلا البيت ثم إلى الفراندة ، وتابع حمدان أسئلته بعدما جلسا:

ـــ حضرتك من المديرية ؟

ابتسم وقال:

ـــ لا ، ولا تكثر من السؤال ، أين أبوك ؟.

ابتسم حمدان قائلا :

ـــ أقول له من ؟.

ـــ أخبره فقط أن أحد أهل جرجاوة يريد مقابلته .

ـــ أنت من جرجاوة ؟

وانصرف حمدان إلى والده في غرفته ، كان يصلي الضحى فانتظره حتى أنهى صلاته

ـــ هناك من ينتظرك بالخارج ولا تسألني من هو !.

ـــ غريب ؟

ـــ لم أره من قبل في جرجاوة ومع ذلك يقول إنه من أهلها.

سار حمدان أمامه حتى دلفا إلي الرجل ، فقام له متكئا على عصاته قائلا :

ـــ كيف حالك يا فؤاد

تسمّر شيخ البلد مكانه وأمعن النظر فيه ولم يدر ما يقول ، مرت على شيخ البلد برهة اختزل فيها عمرا بأكمله حتي لمعت عيناه وتهللت روحه

ـــ رمضان !!.
احتضنا ببالغ الشوق والحب واللهفة ، وكأنهما يحضنان أيامهما السالفة ، حتي بكى شيخ البلد
ـــ كم قالوا للناس إنك مت ، ولكني كنت أكذب
هزّ رأسه قائلا :
ـــ خليفة ! .. شفاه الله وغفر له .
ـــ حمدان أخبر أمك أن عندنا اليوم ضيف عزيز كريم طال انتظاره .
انصرف حمدان مشدوها لم يفهم شيئا مما يحدث حوله ، لكنه أخبر والدته بقدوم الضيف لتهيئ له قِراه. تأمل شيخ البلد حال ضيفه وثيابه وسيارته أمام الدار وقال مبتسما:
ـــ من حق حمدان أن ينكر عليك أنك من جرجاوة يا باشا .
ضحك الرجل وانبسطت أساريره المغلقة
ـــــ وهذا ثمن الغربة
أشار بكلامه إلي شعره الأبيض ، ثم سكت بعد تنهيدة طويلة
ـــ حمدا لله على سلامتك .
قالها شيخ البلد مبتسما كعادته وهو يربت على ركبته ، ثم أردف قائلا:
ـــ زيارتك هونت علىّ الكثير من همومي وأحزاني .
ـــ وأنا جئت اليوم لإزالة كل الهموم والأحزان وأرجو ألا تمانع .
ـــ ومن يمانع في الخير يا رمضان .
ـــ الحمد لله ، هذا ظني بك .. أنت تعرف أن عثمان ابن أخي ظلم من صابر كما ظلمت أنا من خليفة ، وكم أرجو ألا يكون مصيرهما كمصيرنا ..

شتات وغربة وحزن وعقوق ، وأشد ما يقلقني أن عثمان مثلي وأقل ، لكن صابرا أشد من والده وأعنف.

حضرت زوجة شيخ البلد لترى الضيف الذي حدثها عنه حمدان وكيف استقبله والده فدلفت إليهما وما أن وقع بصرها عليه تذكرته

ـــ يااااااااه .. رمضان !.

قام لها مادا يده مسلما فسلمت عليه قائلة:

ـــ حمدا لله على سلامتك.

ـــ الله يسلمك يا أم حمدان.

نزعت يدها من يده وهي تقول:

ـــ كنّا نظنك ..

قاطعها شيخ البلد بحدة قائلا:

ـــ أم حمدان !.

انصرفت بخجلها فاستوقفها حمدان ببهو البيت يسألها عن هوية الرجل ، فأخبرته أنه رمضان عم عثمان ، وكلّما استزادها من خبره قالت في عجالة وهي منصرفة إلي مطبخها إن قصته طويلة ستقصها عليه فيما بعد.

جلس الرجل ضاحكا من تصرف شيخ البلد وزوجته ولم يعلق ، والتفت إلى داخل البيت فرأى علا تنزل درج السلم بتؤدة وتمهل ، ليس دلالا ولكنه شرود وتيه ، رأي فيها عينين ذابلتين مكتحلتين بالحزن ، ووجنتين شققتهما دموع سخينة قاسية ، ووجه شاحب مهموم.

ـــ علا ؟.

ألقى برأسه داخل البيت وردها إليه قائلا:

ـــ جزاه الله كل شر وسوء .
ـــ فؤاد .. جئت اليوم لأمر واحد لا غير ، هو رجوع الزوجين لبعضهما
وضع الرجل وجهه في كفه وفرك مقلتيه
ـــ علا حامل .
تهلل وجه رمضان واستبشر ، لكنها بهجة ما لبثت أن تكسرت على قول شيخ البلد
ـــ لكنها أمنية لي ولك لا أستطيع أن أحققها.
ـــ ولم ؟.
ـــ لأن الحال لا يزال كما هو عليه لم يتغير شيء ، أتعرف أن الخسيس صابر قد وسط لدي أحد الوسطاء للزواج منها بعد انقضاء عدتها ، ثم أتى بنفسه يطلبها فكاد حمدان أن يقتله !.
امتقع وجه الرجل واشمأز من فعل ابن أخيه ، ثم قال بنبرة هادئة رزينة:
ـــ لا أدري كيف أعتذر لك عما فعل ، ولكن الحال ليست كما هي عليه كما ظننت ، فعثمان وزوجته لن يقيما في بيت واحد مع صابر ، سيقيم معي في (فيلتي) في أطراف القرية ، وسأشتري له أرضا وبيتا أيضا ، وسأنقل خليفة للعيش معي ريثما أنتهي من تأديب الكلب ابن الكلب ابن أخي.
ـــ ألديك (فيلا) هنا ؟
ـــ نعم ولكن لا تكثر من السؤال ، ستعرف القصة بتمامها في وقتها ، ولكن الأهم منّي الآن هو إصلاح ما فسد .
دلف حمدان إلى الفرندة وقبل أن يجلس بادره رمضان قائلا:
ـــ أرأيت عثمان اليوم ؟

ـــ رأيته في طريق عودتي من الحقل منذ ساعة ، كان يجلس مسترخيا تحت شجرة بالقرب من أرضهم .

ـــ أذهب إليه وأحضره فورا ، قل له عمك يريد رؤيتك .

نظر حمدان إلى والده رافضا لما يحدث ، ولما سمعه من كلمات ترامت إلى أذنه بصالة البيت بشأن عودة أخته إلى عثمان ، فأشار له والده بالذهاب دون كلمة ، فترجل ثقيل القدمين على مضض.

ـــ علمت أن الكلب يستأجر أخيه في أرضه بأجرة أسبوعية كغيره .

قالها رمضان في غيظ وحنق وهو جاز على أسنانه ، فقالت أم حمدان التى ظهرت فجأة:

ـــ السفرة جاهزة

همّ شيخ البلد بالوقوف لكن رمضان أشار إليه فجلس ، فأشار شيخ البلد لزوجته برأسه فذهبت .

خرجت علا إلى فناء البيت ، تبعاها بنظرهما حتي جلست على كرسي أسفل شجرة الجوافة الفارعة .

قال شيخ البلد بتأثر:

ـــ كلما رأيتها في هذه الحال ألوم نفسي على موافقتي على زواجها من عثمان .

ـــ خبيئة النفوس لا يعلمها إلا الله ، وسترجع المياه لمجاريها قريبا .

كان جالسا أسفل شجرة الصفصاف كقطعة منها ، لا تند عنه حركة ولا همسة ، مسددا النظر إلي الماء في عبوس ظاهر ، شارد الذهن وكأنه ليس من أهل هذا الوجود ، استسلم للأمر الواقع .. قُطعت الأسباب بينه وبين زوجته ، لم يدم الأمر طويلا وكأنها كانت زوجة مؤقتة ، مرت بحياته الجرداء كنسمة باردة مرت على نبت ضعيف متهالك فوهبت له معنى الحياة وذهبت ، أو زخّة مطر أتت في يوليو الكاذب وانقضت ، وهذه هي المرأة في أقل معانيها ودلائلها في حياة الرجل وقلبه .

ومع غيابها عنه وخروجها من حياته انقطعت عنه الأمطار ، فتشققت قيعانه وسخنت ، وظن أنه كان في نعمة لم يشعر بها ولم يحافظ عليها .. كانت الحائط الظليل الذي هدمه بيده ، وفرغ العالم من حوله بعدها ، فليس ثم إلا شقاءه بحلمه وغياب أخيه علي الذي لا يعرف عنه شيئا ، ومرض أبيه الذي أنهكه ، فمن الحقل إلي والده إلى الطبيب ، ثلاثة أماكن لا تبتعد رجلاه عنهم إن تحركتا. أخبره الطبيب المعالج أن لا أمل في شفاء والده إن لم تتحسن حالته النفسية ، إذ أن حالته نفسية في المقام الأول ، ولكن أنّى له أن يهيئ له مناخ نفسي مريح ، وأخوه يرعى في البيت كحيوان لا قلب له ولا ضمير ، فصالة البيت يوميا كالمقهى يجتمع فيها مع أصدقاءه من الجبل يدخنون الحشيش ، ولا يدع والده يهنأ بنومة من ضحكاتهم السخيفة العالية و طرقعات الدومينو.

ـــ عثمان .

قالها حمدان بشفاه مترددة مغيظة على مضض ، فالتفت إليه عثمان مشدوها ، ونظر إليه بعينين زائغتين ، أردف حمدان قائلا:

ـــ عمك يريد رؤيتك .
ـــ شيخ البلد ؟
ـــ لا ، عمك رمضان .
ـــ عمي رمضان .. عمي رمضان !
لم يدعه حمدان يسترسل في أسئلة هو نفسه لا يعرف إجابتها ، فمضى أمامه فتبعه عثمان ، وفي منتصف الطريق قابلهما صابر فاستوقفهما فاردا يديه وكأنه يمنعهما من المرور ، ونظر إلى أخيه غاضبا وقال:
ـــ إلى أين أيها المخنث ، لم ينته عملك بعد .
ورمق حمدان بنظرة متعالية مشمئزة دفعت حمدان أن يمسكه من تلابيبه ويهوي به في جدول صغير بامتداد الطريق ، ثم أشار إليه بسبابتها الغاضبة كوجهه
ـــ يبدو أن نهايتك يا ابن الكلب قد اقتربت ويبدو أنها ستكون على يدي .
قام صابر من الجدول ينفض ملابسه من الماء والطين ، ورمقهما بنظرة نارية حاقدة ، وتمتم بلعنهما ثم اتجه صوب الجبل.

وفي الطريق قال له حمدان:
ـــ معذرة يا عثمان على سبي لأخيك ، ولكنه من دفعني لذلك.
دخل حمدان البيت يرفل في جلبابه البني يتبعه عثمان ثقيل الخطى من خجل وحياء ، كانت علا أول ما وقعت عليه عيناه في زاوية الفناء أسفل الشجرة، فتجمد ولم يستطع مواصلة السير ، شيء ما يشده نحوها ، أيملك من الشجاعة أن يسير إليها ويرتمي تحت قدميها يستعطفها أن تصفح عنه وتغفر له !.

نظر رمضان وشيخ البلد إليه في سكونه ، فقال له شيخ البلد:
ـــ يشبهك جدا.
تنهد الرجل وقال:
ـــ أرجو أن يختلف المصير ولا يكون الشبه تاما .
لم يأنس عثمان من نفسه شجاعة ، فتحرك نحوهما ودلف إليهما مشتت الذهن خائر القوى ..
ـــ السلام عليكم .
قاما إليه وهم يردان السلام .
ـــ أؤمر يا عم فؤاد .
ـــ الأمر لله يا ابني ، سلم أولا على عمك رمضان .

الأمر جد إذن ، ولم يكذب حمدان لاستدراجي لبيتهم ، فطيلة الطريق يطرح سؤالا عن سر حضوره إليه وطلبه في الذهاب معه إلى البيت .. هذا هو عمي رمضان الذي أخبرونا بموته طيلة هذا العمر ، يااااااه أين كنت أيها الرجل ؟. ارتمى في حضنه باكيا كطفل صغير ، كذلك هطلت عينا عمه بالدموع وهو يضع يده على رأسه . رأت علا عثمان بين ذراعي عمه فعرفته فقامت ثائرة الوجه إلى الداخل فاستوقفها أبوها قائلا:
ـــ علا ..
وقفت ناظرة إليه في تحد صارخ قائلة:
ـــ نعم !.
ولم تزد ، ولم تتحرك نحوه كعادتها إذا ناداها ، فأردف الرجل:
ـــ تعالي هنا .

فدلفت إليه وقد جلسوا في أماكنهم يتردد بصرها بينه وبين الرجل الغريب، وكأن عثمان ليس بينهم ، أشار أبوها إلي رمضان قائلا:

ـــ سلمي على عمك رمضان عم عثمان .

مد الرجل يده لكنها لم تتحرك خطوة واحدة نحوه ، ولم تزد عن هز رأسها قائلة بجفاء:

ـــ أهلا وسهلا.

تدارك شيخ البلد الموقف قائلا:

ـــ عمك رمضان أخي وصديقي وعِشرة عمْر ، وجاء اليوم ليردك إلى ابن أخيه ، وستسكنان معا في فيلا في شرق البلد ، وسيشتري لكما بيتا وأرضا، وستكونان معا بعيدا عن أية منغصات أو مشاكل تصدر من أحد.

تفاجأ عثمان بهذا الكلام وكأنه يحلم ، فارتسمت على وجهه سعادة بارزة تلألأت لها عينيه ولمعت ، لكن علا استقبلت الكلام بفتور وعدم اكتراث ، نظرت إلى عثمان نظرة باردة ، ثم حولت نظرها إلي أبيها قائلة:

ـــ لست موافقة على الرجوع .

كان حمدان أقرب الجالسين لها في وقفتها ، وكذلك أسرعهم رد فعل على كلامها ، فقد بدت عليه راحة ظاهرة لما سمع من أخته ، أما الآخرين فألجمتهم الدهشة المرتسمة على وجوههم عن الكلام .

قالت الأم من الداخل:

ـــ على راحتها .

قال رمضان مستعينا بشيخ البلد بالتفاتة عابرة:

ـــ ولم يا ابنتي ؟.

قالت باستهانة محزنة رافقتها لمعة دمع في عينها:
ـــ ولم أرجع إليه ؟.
ـــ لأنه زوجك ولم يمض على زواجكما شيء يذكر ، وليس أحد معصوم من المشاكل التي تعترض حياته ، خصوصا أنها قد حلّت .. وغير ذلك فأنت حامل.
"حامل" ترددت الكلمة في صدر عثمان كدقة أجراس فرحة مشوبة بحزن وقلق ، فوقف قائلا:
ـــ حامل ! .. مبروك يا علا .
قالها بعين متوسلة وصوت خفيض ، فلم تعره انتباها وتوجهت بحديثها إلي عمه قائلة:
ـــ لن أرجع إليه مهما كان .
لم تستطع علا تجاوز الليلة العصيبة التى مثّلت قمة ألمها وهي تُطلق ، ولم تنس وقفتها متوسلة بضعفها الأنثوي الذي صرخ بداخلها كطفل صغير محبوس في قبو نحاسي ينادي أمه من خوف وفزع وهلع وهي تناديه "عثمان". انسكبت دموعها ليلتها سخينة متفرقة ، كأنها ماء منسكب من كوب زجاجي تهشمت أوصاله على رخام صلد لا روح فيه ولا قلب ، لكنه ظل منكس الرأس . "عثمان" ذلك النداء الذي خرج من صَرْح أنوثتها وهو على وشك الانهيار لكنه لم يفهمه ، أو فهمه ولكن لم تقوَ رجولته على الحفاظ على مدينتها التى هو ملكها وحارسها. "عثمان" لا تدعني أرحل ، أريد البقاء هنا ، بحق كل جميل بيننا انتبه. "عثمان" أمد لك يدي قبل أن تحرم عليك .. قبل فوات الأوان. فظل في تيهه حتي جذبها

حمدان من أمامه ، لم تشعر بيد أخيها لحظتها إلا كمحارب يجذب أسيرته أمام عين قائدها الخائن الذي سلم مفاتيح مدينته لأعدائه. أشاحت بعينيها الدامعة عن وجه عثمان ولم ترد عليه ، وهرولت إلى الداخل باكية كأشد ما يكون البكاء في حادث مؤلم حزين. اصطدمت بحسن على باب الفرندة حتي كاد أن يقع لولا أن أمسك بالحائط ، ثم نظر في جمعهم ، لكن السؤال لم يقو على التحرك في فمه ، فوجود عثمان كفيل للرد على أي سؤال. نظر إليهم عثمان فوجد عيونهم متعلقة به كشبكة صيد ، والسؤال المرسوم على ملامحهم ناطق بحاله لا يعوزه النطق ، فقال عثمان بصوت جهوري:

ـــ علا !.

توقفت في منتصف السلم وتسمّرت ، واستدارت ببطء ونزلت بخطى وئيدة حتى وقفت أمام السلم ..

تابع بجهارة صوته قائلا:

ـــ تعالي هنا .

ترجلت نحوه ببطء حتي وقفت على حافة الباب ، وبنبرة هادئة قال لشيخ البلد:

ـــ قد رددتها.

فقالت بانفعال:

ـــ قلت لا أريد الرجوع.

قال شيخ البلد مبتسما متجاهلا قولها:

ـــ مبروك يا عثمان .

تركتهم وصعدت إلى غرفتها غاضبة ، فقال حسن:

ـــ وأنا كذلك لست مرحبا بعودتها إليك ، يكفي خنوعك وجبنك .
قال الوالد:
ـــ حسن !.
قال حمدان موافقا رأي أخيه:
ـــ وهذا رأيي يا أبي .
قال عثمان:
ـــ معكما كل العذر ، وأعتذر لكما عن كل ألم كنت السبب فيه ، وأعتذر لعلا علي كل ما سببته لها ، وأرجو أن تسامحني ، لكني لن أتنازل عن زوجتي وطفلي ، وأعدكم أن كثيرا من الأمور ستتغير ، لكن على أولا البحث عن أخي (على) الذي رحل ولا أعرف عنه شيئا ، وأن أوفر لأبي مأوى صحيا يكفل له الشفاء.
ربت رمضان على كتفه قائلا:
ـــ أطمئن يا عثمان ، علىّ عندي منذ خرج من البيت ، قابله أحد خفرائي فأتى به إلي الفيلا ليحتجزه لصابر خوفا عليه ، ولّما خبّرني بشأنه أمرته بالكتمان وظل عندي ، وكذلك أبوك الآن في حديقة الفيلا.
قالت أم حمدان باسمة:
ـــ لآخر مرة السفرة جاهزة .
ضحكوا جميعا واتجهوا نحو السفرة ، وبعدما فرغوا من طعامهم سمعوا دوي قاذفات وتفجيرات وإطلاق نار هزّت جرجاوة كلها ، حتي تهشم بعض زجاج النوافذ في بيت شيخ البلد.
قال رمضان والأرض تميد من تحت رجليه:

ـــ ماذا يحدث ؟.

ـــ يبدو أن الداخلية تهاجم الجبل بالطائرات .

دخل أحد خفرائه مسرعا وهو يقول:

ـــ الداخلية تدك الجبل يا شيخ البلد ، وأغلقت مداخلها ومخارجها ، لن يخرج منه أحد حي.

ـــ وأين العمدة الآن ؟.

ـــ العمدة لا يعرف شيئ عن العملية ، حتي إنه ليس موجودا بالقرية .

أشار له بالانصراف ، ثم قال:

ـــ غمّت علينا الداخلية معاد العملية ، تخشى أن يتسرب الخبر .. دائما تشك في أصابعها !.

قال عثمان فزعا:

ـــ قد يكون صابر هناك ..

جرى بكل ما يستطيع من قوة تجاه الجبل يتبعه عمه وشيخ البلد بالسيارة ، و لحق به حسن وحمدان جريا ، حتى وصلوا لأطراف الجبل ، كانت قوات الأمن قد أحاطت بالجبل لمنع دخول أو خروج أحد منه ، وتشير إلى الناس بالابتعاد لخطر المتفجرات المتناثرة ، كانت الأدخنة تتصاعد بكثافة تسد الأفق ، وطلقات الرشاشات تصم الآذان ..

قال معروف خلاف باكيا:

ـــ أخوك بينهم يا عثمان .. الله يرحمك يا صابر .

فحاول عثمان النفاذ من صف الأمن لإنقاذ أخيه لكن القوات منعته بالقوة، ثم مع إصراره المستميت ليعبر اعتدت عليه بضربة على رأسه بعجز

السلاح فأغمي عليه ، فحمله حمدان وحسن إلي سيارة عمه نازفا ، وحضرت علا وأمها وفريدة فأحاطوا بالسيارة ، ودلفت علا إلي عثمان فأسندت رأسه وضمته لصدرها وأخذت تمسح عنه الدم. رأى حمدان سمية جاثية على ركبتيها باكية بجوار صغيرها الباكي ، فاتجه نحوها فأقامها وأجلسها في السيارة .. تزوجها فيما بعد.

تمت

صدر للكاتب

بائع المناديل

(مجموعة قصصية)

٢٠٧٦

(رواية)

أمطار يوليو

(رواية)

يهوديت

(رواية)

---

www.facebook.com/abdulhamidbishara
https://www.facebook.com/abdelhamed.bishara

—

قيلت الكلمة التي كنت تتمناها وتخشاها معا وقت فورة النفس بداخلك ، الكلمة التي انتظرتها لتلقي بها اللائمة على غيرك فيما ستفعل من فعال جبارة إرضاء لنفسك وما تريد، والتي ستحفظ لك عودة آمنة إذا فشلت هناك كما فشلت هنا .

الكلمة التى طال انتظارها ألقيت كورقة أخيرة على منضدة تباع بالمزاد العلني ، أحزم حقائبك ، ليس بعد اليوم شيء تخافه أو تحزن عليه ، هنا الجميع لا يرضى عن الجميع ، المكان يضيق يوما بعد يوم ، إن أوج الحكمة أن تترك مكانا بؤت فيه بالفشل إلي مكان به مظنة النجاح، وليس أكثر على النفس حبا من ملاقاة الأهوال في الترحال ..

وإذا تمثل لك اليأس يوما ، وأطل على فعالك بوجهه القبيح فأرغمه على النظر إلي المرآة فقد يموت من قبح منظره ، أو بيأسه منك.

جـ ١
www.gocp.gov.eg
تصميم الغلاف : ريهام خيرى